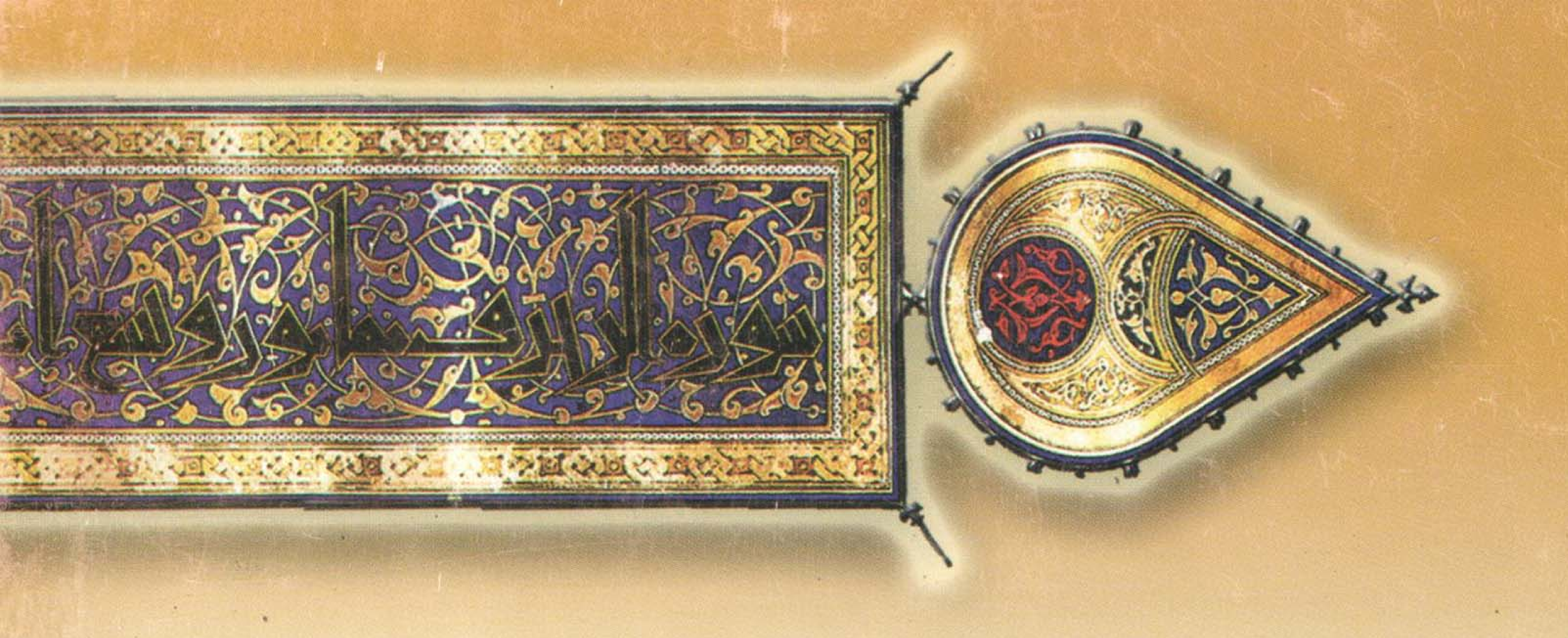


الإيجاز و البيان
فى
علوم القرآن

فضيلة الشيخ
محمد الصادق قمحاوى



الإيجاز والبيان فى

علوم القرآن

الطبعــــة الثانية

١٤٢٨ هـ ـــ أبريل ٢٠٠٧ م



٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ روكسى ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl@hotmail. com >

< shoroukintl@yahoo.com >

الإيجاز والبيان في علوم القرآن

فضيلة الشيخ

محمد الصادق قمحاوى



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله منزل القرآن، وملهم البيان، فضل ديننا على سائر الأديان، وأكرمنا برسالة خير الأنام، عبده ورسوله وصفيه وخليله، وخيرته من خلقه، محمد ابن عبد الله، الذى محا الله به الرجس وعبادة الأصنام، وأكرمه بمعجزة القرآن، المستمرة على تعاقب الدهور والأزمان، والتى تحدى بها جميع الخلق من إنس وجانّ، وأفحم بها جميع أهل الزيغ والطغيان، وجعله ربيعا لقلوب أهل البصائر والشكر والعرفان، فلا يَخْلَقُ على كثرة الرد وتغاير الأحيان، وقد يَسَّرَهُ للذكر حتى استظهره الشِّيبُ والولدان، وضمن لنا حفظه من تطرق التغيير والحدثان، بوعده الحق وقوله الصدق، ووعده -عز وجل- لا يتخلف؛ فقال عز من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر:٩] وقد وفق الله للعناية بعلوم القرآن من اصطفاهم من أهل الحذق والإتقان، فجمعوا فيها من كل فن ما ينشرح له صدر أهل النعمة والإيمان.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، شهادة محصلة للرحمة والغفران، منقذة لصاحبها من هول الجحيم والنيران، موصلة إلى سكنى أهل النعيم فى أعلى الجنان.

أما بعد، فقد منَّ اللَّه - عز وجل - على الأمة الإسلامية بعد أن تكامل نضج الخليقة والإنسانية، وأراد اللَّه فى علمه الأزلى لرسالة سيد البشر «محمد» ﷺ أن تشرق على الوجود؛ فبعثه على فترة وانقطاع من الرسل؛ ليكمل عقد إخوانه من الرسل السابقين بشريعته العامة وكتابه الخالد ومعجزته العظمى: القرآن الكريم، ففى حديث رسول الله ﷺ: **«مَثَلى ومَثَل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية. فجعل الناس يطوفون به ويعجبون منه، ويقولون لولا هذه اللَّبِنَة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين». متفق عليه.**

فالقرآن الكريم رسالة اللَّه إلى الإنسانية كافة وقد تواترت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على ذلك: قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا**﴾[سبأ:٢٨] وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[الأنبياء:١٠٧] وقال تعالى: ﴿**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ**﴾[الأنعام:١٩].

وكان كل نبى يُبعث إلى قومه خاصة، أما محمد ﷺ فبُعث إلى الناس كافّة، ففى الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله «... **وأعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى...**»[1] وغير ذلك كثير وكثير من القرآن والسنة.

فلا غروَ من أن يأتى القرآن الكريم وافيا بجميع مطالب الحياة الإنسانية على الأسس الأولى للأديان السماوية، قال تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ [الشورى:١٣].

وقد تحدى رسول الله ﷺ العرب بالقرآن، مع أنه نزل بلسانهم وهم أرباب الفصاحة والبيان، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله أو بعشر سورمن مثله أو بسورة من مثله، فثبت له هذا الإعجاز، وبإعجازه تثبت الرسالة المحمدية العامّة.

كتب الله له الحفظ والنقل المتواتر دون تحريف أو تبديل، فمن أوصاف جبريل الذى نزل به: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ**﴾ [الشعراء:١٩٣]. ومن أوصافه وأوصاف المنزل عليه: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**

(١)البخارى [٣٣٥]، ومسلم [٥٢١].

﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢٤]، وكذا قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٩].

ولم تكن هذه الميزة لكتاب آخر من الكتب السابقة؛ لأنها جاءت موقوتة بزمن خاص وأقوام مخصوصين، وجاء القرآن الكريم برسالته العامة لجميع الخلق: إنس وجن، عجم وعرب، شرق وغرب.

فتجاوزت رسالة القرآن الإنس إلى الجن قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

هذا، والقرآن بتلك الخصائص يعالج المشكلات الإنسانية فى شتى مرافق الحياة الروحية والعقلية والبدنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية علاجا حكيما؛ لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ويضع لكل مشكلة بَلْسَمَهَا الشافى فى أسس عامة تترسم الإنسانية خطاها، وتبنى عليها فى كل عصر ما يلائمها، فاكتسب بذلك صلاحيته لكل زمان ومكان، فهو دين البقاء والخلود. وما أروع ما قاله داعية الإسلام فى القرن الرابع عشر الهجرى، الإمام الشهيد حسن البنا، فى رسالة التعاليم: (الإسلام نظام شامل. يتناول مظاهر الحياة جميعها. فهو دولة ووطن وحكومة وأمة، وهو خلق وقوة، ورحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون، وعلم وقضاء، وهو مادة وثروة، وكسب وغنى، وهو جهاد ودعوة، وجيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة، وعبادة صحيحة سواء بسواء).

والإنسانية المعذبة اليوم فى ضميرها، المضطربة فى أنظمتها، المتداعية فى أخلاقها، لا عاصم لها من الهاوية التى تتردى فيها إلا القرآن. قال تعالى:

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

والمسلمون هم وحدهم الذين يحملون المشعل وسط هذه النظم وتلك المبادئ السامية، ولذلك فحَرِىٌّ بهم أن ينفضوا أيديهم من كل بهرج زائف، وأن يقودوا الإنسانية الحائرة بالقرآن الكريم حتى يأخذوا بيدها إلى شاطئ السلام والأمان. وكما كانت لهم الدولة بالقرآن فى الماضى، فإنها كذلك لن تكون لهم إلا به فى الحاضر والمستقبل.

واللهَ أسأل أن يوفقنا للعمل بالقرآن واتباع هدى سيد الأنام إنه سميع الدعاء مجيب النداء.

محمد الصادق قمحاوى

الجزء الأول

التعريف العلمى للقرآن
فى اللغة والاصطلاح

يقولون قرأ: يأتى بمعنى الجمع والضم والقراءة: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض فى الترتيل، والقرآن - فى الأصل - كالقراءة مصدر. . قرأ قراءة وقرآنا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧-١٨]. أى قراءته، فهو مصدر على وزن «فُعلان» بالضم، كالغفران والشكران، تقول: قرأته قرءا وقراءة وقرآنا، بمعنى واحد، سمى به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر، وقد خص القرآن بالكتاب المنزل على محمد ﷺ فصار له كالعَلَم الشخصى.

ويطلق بالاشتراك اللفظى على مجموع القرآن، وعلى كل آية من آياته، فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن صح أن تقول إنه يقرأ القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ [الأعراف:٢٠٤].

وذكر بعض العلماء أن تسمية هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله تعالى لكونه جامعا لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم. كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. وقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

وذهب بعض العلماء إلى أن لفظ القرآن غير مهموز الأصل فى الاشتقاق، إما لأنه وُضِعَ عَلَمًا مُرْتَجَلاً على الكلام المنزل على النبى ﷺ وليس مشتقا من «قرأ»، وإما لأنه من قرن الشىء بالشىء إذا ضمه إليه، أو من القرائن لأن آياته يشبه بعضها بعضا؛ فالنون أصلية - وهذا رأى مرجوح - والصواب الأول.

والقرآن الكريم يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول

والخواص، بحيث يكون تعريفه حداً حقيقياً، **والحد الحقيقى**: هو استحضاره معهودا فى الذهن، أو مشاهدا بالحس، كأن تشير إليه مكتوبا فى الصحف، أو مقروءا باللسان، فتقول هو ما بين هاتين الدفتين، أو تقول: هو ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

هذا ويذكر العلماء له تعريفا **اصطلاحيا** يقرب معناه ويميزه عن غيره، فيعرفونه بأنه: كلام الله القديم الأزلى المنزل على «محمد» ﷺ باللفظ والمعنى، المتعبد بتلاوته، المنقول إلينا نقلا متواترا «فالكلام» جنس فى التعريف، يشمل كل كلام، وإضافته إلى «الله» يخرج كلام غيره من الإنس والجن والملائكة، و«المُنَزَّل» يخرج كلام الله الذى استأثر به سبحانه ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩]، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧]. وتقييد المنزل بكونه على «محمد» ﷺ يخرج ما أنزل على الأنبياء قبله، كالتوراة والإنجيل وغيرهما. و«المتعبد بتلاوته» يخرج قراءات الآحاد، والأحاديث القدسية - إن قلنا إنها منزلة من عند الله بألفاظها - لأن التعبد بتلاوته معناه الأمر بقراءته فى الصلاة وغيرها على وجه العبادة، وليست قراءة الآحاد والأحاديث القدسية كذلك. «المنقول إلينا نقلا متواترا» يخرج القراءات الشاذة صحيحة السند.

أسماء القرآن وأوصافه

وقد سماه الله بأسماء كثيرة:

منها «القرآن»: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

و«الكتاب»: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء:١٠].

و«الفرقان»: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

و«الذكر»: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

و«التنزيل»: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢].

إلى غير ذلك مما ورد فى القرآن. وسيأتى بيان لذلك أكثر إن شاء الله تعالى.

وقد غلب من أسمائه: القرآن والكتاب.

قال الدكتور محمد عبد الله دراز: روعى فى تسميته قرآنا كونه مَتْلُوّاً بالألسن، كما روعى فى تسميته كتابا كونه مدونا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه.

وفى تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه فى موضعين لا فى موضع واحد، أعنى أنه يجب حفظه فى الصدور والسطور جميعا، أن تضل إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المُجْمَع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلا بعد جيل على هيئته التى وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التى بعثها فى نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقى القرآن محفوظا فى حرْزٍ حَرِيز، إنجازا لوعد الله الذى تكفل بحفظه حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وقد حقق الله وعده فلم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند.

وبَيَّنَ سر هذه التفرقة بأن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد، وأن هذا القرآن جيء به مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليها، فكان جامعا لما فيها من الحقائق الثابتة، زائدا عليها بما شاء الله زيادته، وكان سائرا مَسِيرَها، ولم يكن شيء منها ليسد مَسَدَّه، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة، وإذا قضى الله أمرا يَسَّرَ له أسبابه، وهو الحكيم العليم.

أما وصفه فقد وصف الله القرآن بأوصاف كثيرة كذلك، منها أنه «نور»، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾ [النساء:١٧٤].

و«هدى» و «شفاء» و«رحمة» و«موعظة»، قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

و«مبارك»: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام:٩٢].

و«مبين»: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١٥].

و«بشرى»: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٧].

و«عزيز»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت:٤١].

و«مجيد»: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج:٢١].

و«بشير» و«نذير»: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فصلت:٣-٤].

وكل تسمية أو وصف فهو باعتبار معنى من معاني القرآن.

***

الفرق بين القرآن
والحديث القدسى والحديث النبوى

سبق تعريف القرآن، ولكى نعرف الفرق بينه وبين الحديث القدسى والحديث النبوى فلنقدم التعريفين الآتيين.

الحديث النبوى

أولا - الحديث فى اللغة: ضد القديم، ويطلق ويراد به كل كلام يتحدث به وينقل ويبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحى فى يقظته أو منامه، وبهذا المعنى يسمى القرآن حديثا، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]. وسمى ما يُحَدَّثُ به الإنسان فى نومه حديثا، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:١٠١].

والحديث فى الاصطلاح: ما أضيف إلى النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

فالقول، كقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**» -من حديث طويل رواه البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه-.

والفعل، كالذى ثبت عن تعليمه لأصحابه كيفية الصلاة، ثم قال: «**صلوا كما رأيتمونى أصلى**» - رواه البخارى. وما ثبت من كيفية حجه، بقوله: «**خذوا عنى مناسككم**» - أخرجه مسلم وأحمد والنسائى.

والإقرار، كأن يقر أمرا عَلِمَهُ عن أحد الصحابة من قول أو فعل، سواء أكان ذلك فى حضرته ﷺ أم فى غيبته ثم بلغه، ومن أمثلته: أكْل الضب على

مائدته ﷺ، وما روى من أن رسول الله ﷺ بعث رجلا على سريّة، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاته فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك له - عليه الصلاة والسلام- فقال: «**سلوه لأى شىء يصنع ذلك؟**» فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبى ﷺ: «**أخبروه أن الله يحبه**» رواه البخارى ومسلم.

والصفة، كما روى من أنه ﷺ كان دائم البِشْر، سهل الخُلُق، لين الجانب، ليس بفَظٍّ ولا غليظٍ ولا صَخّاب، ولا فَحّاش، ولا عَيّاب.

وأما الحديث القُدُسى

فقد عرفنا معنى الحديث لغة، والقدسى: نسبة إلى القُدُس وهى نسبة تدل على التعظيم لأن مادة الكلمة دالة على التنزيه والتطهير فى اللغة، فالتقديس: تنزيه الله تعالى، والتقديس: التطهير، وتقدس: تطهر. قال تعالى على لسان ملائكته: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠]. أى نطهر أنفسنا لك.

والحديث القدسى فى الاصطلاح: هو ما يضيفه النبى ﷺ إلى الله تعالى؛ أى أن النبى ﷺ يرويه على أنه من كلام الله، فالرسول راوٍ لكلام الله بلفظ من عنده، وإذا رواه أحد عن رسول الله مسندا إلى الله - عز وجل - فيقول: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه - عز وجل، ومثال ذلك عن أبى هريرة -رضى الله عنه- عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه - عز وجل: «**يد الله مَلأَى لا يَغِيضُها نفقة سَحّاءُ، الليلَ والنهارَ**» -أخرجه البخارى. وقد يكون بلفظ «قال رسول الله»، ومثاله عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: «**أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه**» - أخرجه البخارى ومسلم.

وأما الفرق بين القرآن والحديث القدسى

فاعلم أن هناك فروقا كثيرة بين القرآن والحديث القدسى، ولكن سنذكر منها الأهم:

الأول: أن القرآن كلام الله الموحَى إلى الرسول بلفظه، وتحدى به العرب فعجزوا عن أن يأتوا بمثله كما فى قوله: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**﴾ [الإسراء:٨٨]، أو ﴿**بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ**﴾ [هود:١٣]، أو ﴿**بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ**﴾ [البقرة:٢٣]، فلا يزال التحدى به قائما، فهو معجزة خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والحديث القدسى وإن كان من كلام الله، إلا أنه لم يقع به تحدٍّ ولا إعجاز.

الثاني: أن القرآن الكريم لا ينسب إلا إلى الله - تعالى - فيقال: قال الله تعالى. والحديث القدسى -كما سبق- قد يروى مضافا إلى الله، وتكون النسبة إليه حينئذ نسبة إنشاء، فيقال: قال الله تعالى، أو يقول الله تعالى. وقد يروى مضافا إلى الرسول ﷺ وتكون النسبة حينئذ نسبة إخبار؛ لأنه ﷺ هو المخبر عن الله تعالى، فيقال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه - عز وجل.

الثالث: أن القرآن الكريم جميعه منقول إلينا بالتواتر، فهو قطعى الثبوت، والأحاديث القدسية أكثرها أخبار آحاد. فهى ظَنِّيَّة الثبوت، وقد يكون الحديث القدسى صحيحا، وقد يكون حسنا، وقد يكون ضعيفا.

الرابع: أن القرآن الكريم من عند الله لفظا ومعنى، فهو وحى باللفظ والمعنى. والحديث القدسى معناه من عند الله، ولفظه من عند الرسول ﷺ على الصحيح، فهو وحى بالمعنى دون اللفظ، ولذا تجوز روايته بالمعنى عند جمهور المحدثين.

الخامس: أن القرآن الكريم متعبد بتلاوته، فهو الذى تتعين القراءة به فى الصلاة، قال تعالى: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ**﴾ [المزمل:٢٠].

وقراءته عبادة يثيب الله عليها كما جاء فى الحديث: «**من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول «آلم» حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**» - رواه الترمذى عن ابن مسعود وقال: حديث حسن صحيح.

والحديث القدسى لا يجـزئ فى الصلاة، ويثيب الله على قراءته ثوابا عامـا، فلا يصدق فيه الثواب الذى ورد ذكره فى الحديث على قراءة القرآن، بكل حرف عشر حسنات.

أما الفرق بين الحديث القدسى والحديث النبوى

فالحديث النبوى قسمان:

«قسم توقيفى»: وهو الذى تلقى الرسول ﷺ مضمونه من الوحى فَبَيَّنَهُ للناس بكلامه، وهذا القسم وإن كان مضمونه منسوبا إلى الله، فإنه - من حيث هو كـلام - حرى بأن ينسب إلى الرسـول ﷺ؛ لأن الكلام إنما ينسب إلى قـائله وإن كان ما فيه من المعنى قد تلقاه عن غيره.

و«**قسم غير توقيفى**»: وهو الذى استنبطه الرسول ﷺ من فهمه للقرآن؛ لأنه مُبَيِّن له، أو استنبطه بالتأمل والاجتهاد.

وهذا القسم الاستنباطى الاجتهادى يقره الوحى إذا كان صوابا، وإذا وقع فيه خطأ جزئى نـزل الوحى بما فيه الصـواب. ومثاله مـا كان فى أسـرى بدر، فإن رسول الله ﷺ أخذ برأى أبى بكر وقبل منهم الفـداء، فنزل القرآن الكريم معاتبا له: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]. وليس هذا القسم كلام الله قطعا.

ويتبين من ذلك: أن الأحاديث النبوية بقـسميها -التوقيفى، وغـير التوقيفى الاجتهادى الذى أقره الوحى- يمكن أن يقال فيهـا: إن مَرَدَّها جميعا بجملتها إلى الوحى، وهذا معنى قوله تعالى فى رسولنا ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، والحديث القدسى مـعناه من عند الله - عز وجل - يلقى إلى الرسول ﷺ بكيفية من كيفيات الوحى لا على التعيين. أما ألفاظه فمن عند الرسول ﷺ على الـراجح، ونسبتـه إلى الله تعالى نسبـة لمضمونه لا نسـبة لألفاظه، ولو كان لفظه من عند الله لما كـان هناك فرق بينه وبين القرآن، ولوقع التحدى بأسلوبه والتعبد بتلاوته.. والله أعلم.

الوحى وتعريفه

الوحى هو أن يعلّم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر. ويكون الوحى على أنواع شتى، فمنه ما يكون مكالمة بين العبد وربه، كما كلّم الله موسى تكليما، ومنه ما يكون إلهاما يقذفه الله فى قلب من اصطفاه على وجه من العلم الضرورى لا يستطيع له دفعا، ولا يجد فيه شكا، ومنه ما يكون مناما صادقا يجىء فى تحققه ووقوعه كما يجىء فلق الصبح فى تَبَلُّجه وسطوعه، ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحى جبريل - عليه السلام - وهو مَلَكٌ كريم ذو قوة عند ذى العرش مكين، مطاع ثَم أمين، وذلك النوع هو أكثر الأنواع، ووحى القرآن كله من هذا القبيل. قال تعالى فى سورة الشعراء: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾. ويهبط هذا الوحى على أساليب شتى، فتارة فى الأرض وكان يقول: «أنا جبريل، وأنت رسول هذه الأمة».

وقد يظهر للرسول ﷺ فى صورته الحقيقية الملكية، فقد رآه على هذه الصورة مرتين فى أول نزوله بـ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وذلك فى الأرض، ومرة فى السماء ليلة المعراج، وتارة يظهر فى صورة إنسان يراه الحاضرون ويستمعون إليه، وتارة يهبط على الرسول خفية لا يُرى، ولكن يظهر أثره بالتغير والانفعال على صاحب الرسالة، فيَغطُّ غطيط النائم ويغيب غيبة كأنها غشية أو إغماء، وما هى فى شىء من الغَشية والإغماء، إن هى إلا استغراق فى لقاء الملك الروحانى وانخلاع عن حالته البشرية العادية، فيؤثر ذلك على الجسم فيغط ويثقل ثقلا شديدا قد يتصبب منه الجبين عرقا فى اليوم الشديد البرد. وقد يكون وقع الوحى على الرسول كوقع الجرس إذا صلصل فى أذن سامعيه، وذلك أشد أنواعه، وربما يسمع الحاضرون صوتا عند وجه الرسول كأنه دوى النحل، لكن لا يفهمون كلاما ولا يفقهون حديثا.

أما هو ﷺ فيسمع ويعى ما يوحَى إليه، ويعلم علم اليقين أن هذا هو وحى الله دون لبَس ولا خفاء ولا ارتياب، فإذا انجلى عنه الوحى وجد ما أوحى إليه

حاضرا فى ذاكرته مُنْتَقَشًا فى حافظته كأنما كتب فى قلبه كتابة، والأدلة على ذلك عقلية ونقلية.

فالنقلية ما رواه البخارى فى صحيحه عن عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فَيَفْصِمُ عنى وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لى الملك فيكلمنى فأعى ما يقول**»(١). قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصّد عرقا.

إمكان الوحى ووقوعه

ازدهرت الحياة العلمية وبددت أشعتها كل ريبة كانت تساور الناس إلى عهد قريب فيما وراء المادة من روح، وآمن العلم المادى الذى وضع جُل الكائنات تحت التجربة والاختبار بأن هناك عالما غيبيّا وراء هذا العالم المشاهد، وأن عالم الغيب أدق وأعمق من عالم الشهادة، وأكثر المخترعات الحديثة التى أخذت بألباب الناس تحجب وراءها هذا السر الخفى الذى عجز العلم عن إدراك كنهه وإن لاحظ آثاره ومظاهره. وقَرَّبَ هذا بُعْدُ الشُّقَّة بين التنكر للأديان والإيمان بها مصداقا لقوله تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ [**فصلت**:٥٣]، وقوله: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [**الإسراء**:٨٥].

فالبحوث النفسية الروحية لها فى مضمار العلم الآن مكانتها، ويساندها ويقرّبها إلى الأفهام تفاوت الناس فى مداركهم وميولهم وغرائزهم، فمن العقول: العبقرى الفذ الذى يبتكر كل جديد، ومنها الغبىّ الذى يستعصى عليه إدراك بديهى الأمور، وبين المنزلتين درجات. والنفوس كذلك، منها الصافى المشرق، والخبيث المعتم.

وجسم الإنسان يطوى وراءه روحا هى سر حياته، وإذا كان الجسم تبلى

---

(١) [صحيح] البخارى [٢].

ذراته، وتفنى أنسجته وخلاياه ما لم يتناول قسطه من الغذاء؛ فجدير بالروح أن يكون لها غذاء يمدها بالطاقة الروحية كى تحتفظ بمقوماتها وقيمها.

وليس ببعيد على الله تعالى أن يختار من عباده نفوسا لها من نقاء الجوهر وسلامة الفطرة ما يعدها للفيض الإلهى، والوحى السماوى، والاتصال بالملأ الأعلى؛ ليلقى إليها برسالاته التى تسد حاجة البشر فى رقى وجدانه، وسمو أخلاقه، واستقامة نظامه، وهؤلاء هم رسله وأنبياؤه.

ولا غرابة فى أن يكون هذا الاتصال بالوحى السماوى؛ فالناس اليوم يشاهدون التنويم المغناطيسى، وهو يوضح لهم أن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها يُحدث أثرا يقرِّب إلى الأفهام ظاهرَة الوحى، حيث يستطيع الرجل القوى الإرادة أن يتسلط بإرادته على من هو أضعف منه؛ فينام نوما عميقا، ويكون رهن إشارته، ويلقنه ما يريد فيجرى على قلبه ولسانه. وإذا كان هذا فعل الإنسان بالإنسان، فما ظنك بمن هو أشد منه قوة؟

ثم هناك دليل آخر من الذى يسمع الناس الأحاديث المسجلة التى تحملها اليوم موجات الأثير، عابرة الوهاد والنجاد، والسهول والبحار، دون رؤية ذويها، بعد وفاتهم.

وأصبح الرجلان يتخاطبان فى الهاتف، أحدهما فى أقصى المشرق، والآخر فى أقصى المغرب، وقد يتراءيان مع هذا التخاطب ولا يسمع الجالسون بجانبهما شيئا سوى أزيز كدوِىّ النحل الذى فى صفة الوحى.

ومَن منا ليس له حديث نفسى فى يقظته أو منامه يدور فى خَلَدِه دون أن يرى متكلما أمامه؟

هذه وغيرها أمثلة تفسر لعقولنا حقيقة الوحى، وتدل دلالة قاطعة على إمكانه.

وقد شاهد الوحى معاصروه، ونُقل بالتواتر المستوفى لشروطه بما يفيد العلم القطعى إلى الأجيال اللاحقة، ولمست الإنسانية أثره فى حضارة أمته، وقوة أتباعه، وعزتهم ما استمسكوا به، وانهيار كيانهم وخذلانهم ما فرطوا فى جنبه، مما لا يدع مجالا للشك فى إمكان الوحى وثبوته، وضرورة العودة إلى الاهتداء به إطفاءً للظمأ النفسى بمُثُله العليا وقيمه الروحية.

ولم يكن رسولنا ﷺ أول رسول أوحى إليه، بل أوحى الله تعالى إلى الرسل قبله بمثل ما أوحى إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٣-١٦٤].

فليس هناك فى نزول الوحى على محمد ﷺ ما يدعو إلى العجب، ولذا أنكر الله على العقلاء هذا فى قوله:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس:٢].

معنى الوحى

يقال: وَحَيْتَ إليه وأوحيتَ: إذا كلمتَه بما تخفيه عن غيره، والوحى: الإشارة السريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد، وبإشارة ببعض الجوارح.

والوحى مصدر، ومادة الكلمة تدل على معنيين أصليين، هما: الخفاء والسرعة: ولذا قيل فى معناه: الإعلام الخفى السريع، الخاص بمن يوجه إليه بحيث يَخْفَى على غيره، وهذا معنى المصدر، ويطلق ويراد به الموحَى، أى بمعنى اسم المفعول. والوحى بمعناه اللغوى يتناول:

١ - الإلهام الفطرى للإنسان، كالوحى إلى أم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧].

٢ - الإلهام الغريزى للحيوان، كالوحى إلى النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل:٦٨].

٣ - الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء، كإيحاء زكريا فيما حكاه القرآن عنه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١].

٤ - وسوسة الشيطان وتزيينه الشرَّ فى نفس الإنسان: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام:١٢١]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

٥ - ما يُلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢].

ووحى الله إلى أنبيائه قد عرفوه شرعا بأنه: كلام الله تعالى المنزل على نبى من أنبيائه، وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول، أى الموحَى.

وعرّفه الأستاذ محمد عبده فى (رسالة التوحيد) بأنه: «عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قِبَل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت. ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام: وجدان تستيقنه النفس فتنساق إلى ما يَطلب على غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور»(١).

وهو تعريف للوحى بالمعنى المصدرى، وبدايته وإن كانت توهم شبهه بحديث النفس أو الكشف، إلا أن الفرق بينه وبين الإلهام الذى جاء فى عجز التعريف ينفى هذا.. والله أعلم.

كيفية وحى الله إلى ملائكته

أولا: جاء فى القرآن الكريم ما ينص على كلام الله للملائكته، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:٣٠].

وعلى إيحائه إليهم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢].

وعلى قيامهم بتدبير شئون الكون حسب أمره، قال تعالى عن ملائكته: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات:٤]، وقال: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:٥]. وهذه النصوص متآزرة تدل على أن الله يكلم الملائكة دون واسطة بكلام يفهمونه.

---

(١) انظر كتاب «الوحى المحمدى» للشيخ محمد رشيد رضا، ص ٤٤.

ويؤيد هذا ما جاء فى الحديث عن النواس بن سمعان - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى، أخذت السماوات منه رجفة - أو قال رعدة - شديدة خوفا من الله -عز وجل- فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرّوا لله سُجّدًا، فيكون أوّلَ من يرفع رأسه جبريلُ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل، فيقول جبريل: «قال الحق وهو العلى الكبير»، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله - عز وجل**» -أخرجه الطبرانى.

فهذا الحديث يبين أن كيفية الوحى تَكَلُّمٌ من الله، وسماع من الملائكة، وهول شديد لأثره، وإذا كان ظاهره - فى مرور جبريل وانتهائه بالوحى - يدل على أن ذلك خاص بالقرآن، فإن صدره يبين كيفيّة عامة، وأصله فى الصحيح: «**إذا قضى الله الأمر فى السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان**».

ثانيا: وثبت أن القرآن الكريم كُتِبَ فى اللوح المحفوظ لقوله تعالى: ﴿**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ**﴾ [البروج: ٢١-٢٢].

كما ثبت إنزاله جملة إلى بيت العزة من السماء الدنيا فى ليلة القدر من شهر رمضان: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾ [القدر: ١]، ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ**﴾ [الدخان: ٣]، ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**﴾ [البقرة: ١٨٥].

وفى السُّنّة ما يوضح هذا النزول، ويدل على أنه غير النزول الذى كان على قلب رسول الله ﷺ، فعن ابن عباس موقوفا: أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك بعشرين سنة، ثم قرأ: ﴿**وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً**﴾ [الفرقان: ٣٣]، ﴿**وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**﴾ [الإسراء: ١٠٦] -أخرجه الحاكم والبيهقى والنسائى. وفى رواية: فُصل القرآن من الذكر، فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزل به على النبى ﷺ -أخرجه الحاكم وابن أبى شيبة.

وقد ذهب العلماء فى كيفيّة وحى الله إلى جبريل بالقرآن إلى مذاهب، **منها**: أن جبريل تلقفه سماعا من الله بلفظه المخصوص، ومنها أن جبريل حفظه من اللوح المحفوظ، ومنها أن جبريل أُلقى إليه المعنى، والألفاظ لجبريل أو لمحمد ﷺ، وهذا رأى ضعيف. والرأى الأول هو الصواب وعليه أهل السُّنّة.

ونسبة القرآن إلى الله فى أكثر من آية:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ [التوبة:٦].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [يونس:١٥].

فالقرآن الكريم كلام الله بألفاظه، لا كلام جبريل، ولا كلام محمد.

أما **الرأى الثانى** فلا اعتبار له، إذ إن ثبوت القرآن فى اللوح المحفوظ كثبوت سائر المغيبات التى لا يخرج القرآن عن أن يكون من جملتها.

و**الرأى الثالث** أنسب بالسُّنّة؛ لأنها وحى من الله أوحى إلى جبريل ثم إلى محمد ﷺ بالمعنى، فعبر عنه رسول الله بعبارته: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].. ولذا جازت رواية السُّنّة بالمعنى - لعارف بما لا يحيل المعانى - دون القرآن.

وسبق أن ذكرنا الفرق بين القرآن والحديث القدسى والحديث النبوى.

فمن خصائص القرآن:

١ - أنه معجز.

٢ - قطعى الثبوت.

٣ - يتعبد بتلاوته.

٤ - ويجب أداؤه بلفظه.

والحديث القدسى - على القول بنزول لفظه - ليس كذلك.

والحديث النبوى قسمان: **الأول** ما اجتهد فيه الرسول ﷺ وهذا ليس وحيا، ويكون إقرار الوحى له بسكوته إذا كان صوابا، و **الثانى**: ما أُوحى إليه بمعناه واللفظ لرسول الله، ولذا يجوز روايته بالمعنى. والحديث القدسى -على القول الراجح بنزول معناه دون لفظه- يكون من هذا القسم، ونسبته إلى الله فى الرواية لورود النص على ذلك دون الأحاديث النبوية.

كيفية وحى الله إلى رسله

الله يوحى إلى رسله بواسطة وبغير واسطة، **فالأول**: بواسطة جبريل ملَك الوحى وسيأتى بيانه، و **الثانى**: وهو الذى لا واسطة فيه، ويأتى على أوجه، منها: الرؤيا الصالحة فى المنام، فعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: أول ما بُدئ به ﷺ الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . متفق عليه. وكان ذلك تهيئة لرسول الله حتى ينزل عليه الوحى يقظةً، وليس فى القرآن شىء من هذا النوع؛ لأنه نزل جميعه يقظة، خلافا لمن ادعى نزول سورة «الكوثر» مناما للحديث الوارد فيها، ففى صحيح مسلم عن أنس - رضى الله عنه - بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا فى المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما، فقلت: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: نزلت علىّ آنفا سورة، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[الكوثر:١-٣]. فلعل الإغفاءة هذه هى الحالة التى كانت تعتريه عند الوحى.

ومما يدل على أن الرؤية الصالحة للأنبياء فى المنام وحى يجب اتّباعه، ما جاء فى قصة إبراهيم من رؤيا ذبحه ولده إسماعيل. هذا هو الصواب، خلافا لمن ذهب إلى أنه إسحاق، فإن البشارة كانت أولاً بإسماعيل قبل إسحاق، وإسماعيل هو الذى نشأ فى الجزيرة العربية حيث كانت قصة الذبح، وهو الحرىّ بأن يوصف بالحلم: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ

﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:١٠١ - ١١٢].

ولو لم تكن هذه الرؤيا وحيا يجب اتباعه لما أقدم إبراهيم - عليه السلام - على ذبح ولده، لولا أن مَنَّ الله عليه بالفدا.

والرؤيا الصالحة ليست خاصة بالرسول، فهى باقية للمؤمنين وإن لم تكن وحيا، كما قال - عليه الصلاة والسلام-: «**انقطع الوحى وبقيت المبشِّرات: رؤيا المؤمن**». والرؤيا الصالحة فى المنام للأنبياء هى القسم الأول من أقسام التكليم الإلهى المذكور فى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١].

ومنه الكلام الإلهى من وراء حجاب بدون واسطة يقظةً، وهو ثابت لموسى، عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

كما ثبت التكلم على الأصح لرسولنا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج. وهذا النوع هو القسم الثانى المذكور فى الآية: ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، وليس فى القرآن شىء منه كذلك.

كيفيّة وحى الملك إلى الرسول ﷺ

وحى الله إلى أنبيائه إما أن يكون بغير واسطة - وهو ما ذكرناه آنفا، وكان منه الرؤيا الصالحة فى المنام، والكلام الإلهى من وراء حجاب يقظةً - وإما أن يكون بواسطة ملَك الوحى، وهو الذى يعنينا فى هذا الموضع؛ لأن القرآن الكريم نزل به.

ولا تخلو كيفية وحى الملك إلى الرسول من إحدى حالتين:

الحالة الأولى: - وهى أشدها على الرسول - أن يأتيه مثل صلصلة الجرس،

والصوت القوى يثير عوامل الانتباه فتتهيأ النفس بكل قواها لقبول أثره، فإذا نزل الوحى بهذه الصورة على الرسول ﷺ، نزل عليه وهو مستجمع القوى الإدراكية لتلقيه وحفظه وفهمه، وقد يكون هذا الصوت حفيف أجنحة الملائكة المشار إليه فى الحديث: «**إذا قضى الله الأمر فى السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كالسلسلة على صفوان**» - رواه البخارى. وقد يكون صوت الملك نفسه فى أول سماع الرسول له.

والحالة الثانية: أن يتمثل له الملك رجلا ويأتيه فى صورة بَشَر، وهذه الحالة أخف من سابقتها، حيث يكون التناسب بين المتكلم والسامع، ويأنس رسول النبوة عند سماعه من رسول الوحى، ويطمئن إليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان.

والهيئة التى يظهر فيها جبريل بصورة رجل لا يتحتم فيها أن يتجرد من روحانيته، ولا يعنى أن ذاته انقلبت رجلا، بل المراد أنه يظهر بتلك الصورة البشرية أُنسا للرسول البشرى، ولا شك أن الحالة الأولى - حالة الصلصلة - لا يوجد فيها هذا الإيناس، وهى تحتاج إلى سمو روحى من رسول الله يتناسب مع روحانية الملك، فكانت أشد الحالتين عليه؛ لأنها كما قال ابن خلدون: «انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالمَلَكية الروحانية، والحالة الأخرى عكسها لأنها انتقال المَلَك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية».

وكلتا الحالتين مذكورتان فيما روى عن عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - أن الحارث بن هشام - رضى الله عنه - سأل رسول الله ﷺ فقال: كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس، وهو أشده على، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال. وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول**». وروت عائشة -رضى الله عنها- ما كان يصيب رسول الله ﷺ من شدة، فقالت: ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا. رواه البخارى.

والحالتان هما القسم الثالث من أقسام التكليم الإلهى المشار إليه فى الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٥١].

١ - ﴿إِلاَّ وَحْيًا﴾.

٢ - ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾.

٣ - ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١].

أما النفث في الرُّوع، أي القلب، فقد ذكره في قول الرسول ﷺ: «**إن روح القدس نفث فى رُوعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب**» -رواه أبو نعيم فى الحلية بسند صحيح. والحديث لا يدل على أنه حالة مستقلة، فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين المذكورتين فى حديث عائشة، فيأتيه الملك فى مثل الصلصلة وينفث فى روعه، أو يتمثل له رجلا وينفث فى روعه. وربما كانت حالة النفث فيما سوى القرآن الكريم.. والله أعلم.

قول آخر فى أسماء وأسماء سوره

قال الجاحظ: سمى الله كتابه اسما مخالفا لما سمى العرب كلامهم على الجَمْل والتفصيل، سمى جملته قرآنا كما سموا ديوانا، وبعضَه سورة كقصيدة، وبعضَها آية كالبيت، وآخرَها فاصلة كقافية.

وقال أبو المعالى عُزَيْزِيُّ بن عبد الملك المعروف بشيدلة -بضم عين عزيزى- فى كتاب البرهان: اعلم أن الله سمى القرآن بخمسة وخمسين اسما: سماه كتابا ومبينا فى قوله ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ وقرآنا وكريما فى قوله ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ وكلاما ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ ونورا ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾، وهدى ورحمة ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفرقانا من قوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾، وشفاء، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾، وموعظة ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾، وذكرا مباركا من قوله ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾، وعليا ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، وحكمة ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾، وحكيما ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، ومهيمنا ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، وحبلا من قوله ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾، وصراطا مستقيما ـ من قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾، وقيِّما - من قوله: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ﴾، وقولا فصلا ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، ونبأ

عظيما ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ﴾، وأحسن الحديث، ومثانى ومتشابها ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾، ووحيا ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ ، وعربيا ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، وبصائر ﴿هَذَا بَصَائِرُ﴾، وبيانا ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾، وعلما ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، وحقا ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾، وهاديا ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي﴾، وعجبا ﴿قُرْآنًا عَجَبًا﴾، وتذكرة ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ﴾، والعروة الوثقى ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾، وصدقا ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾، وعدلا ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ ، وأمر﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾، ومناديا ﴿يُنَادِي لِلإِيمَانِ﴾، وزبورا ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾، وبشيرا ونذيرا ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وعزيزا ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾، وبلاغا ﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ ،قصصا ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، وسماه أربعة أسماء فى آية واحدة ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾. انتهى.

فأما تسميته كتابا فلجمعه أنواع العلوم والقصص والأخبار على أبلغ وجه، والكتاب لغةً: الجمع. والمبين لأنه أبان، أى: أظهر الحق من الباطل.

وأما أسماء سوره فقد قال السيوطى فى الإتقان: قال الجعبرى: السورة هى قرآن يشتمل على آى ذى فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات. وقال غيره: السورة طائفة مترجمة توقيفا، وهى مسماة باسم خاص بتوقيف من النبى ﷺ . وقد وردت أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار، ويدل على ذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم عن عكرمة، قال: كان المشركون يقولون سورة البقرة وسورة العنكبوت يستهزئون بهما، فنزلت: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾. وقد يكون للسورة اسم واحد وهو كثير، وقد يكون لها اسمان فأكثر، ومن ذلك الفاتحة. . وقد وقفتُ لها على نيف وعشرين اسما، وذلك يدل على شرفها، فإن كثرة الأسماء دالة على شرف المسمى، أحدها فاتحة الكتاب. قال ﷺ :«**هى أم القرآن، وهى فاتحة الكتاب، وهى السبع المثانى، وأم الكتاب، وأم القرآن، والقرآن العظيم، والوافية، والكنز، والرقية، والشفاء، والدعاء، والمناجاة، والتفويض**» وسورة البقرة تسمى فسطاط القرآن. وسنام القرآن. وسورة آل عمران تسمى فى التوراة طيبة، وهى والبقرة: الزهراوان. والمائدة تسمى العقود والمنقذة. والأنفال تسمى بدر. وبراءة تسمى التوبة،

وسورة العـذاب، والمقشـقشة. والنحل تسـمى النعم. والإسراء تسـمى سبـحانه، وسورة بنى إسـرائيل. وسورة النمل تسمى سـورة سليمان. وغافـر تسمى الطّول، والمؤمن. والجاثية تسـمى الشريعة. وسورة مـحمد تسمى القتـال. وسورة الرحمن تسمى عروس القـرآن. والحشر :بنى النضير. وسأل: المعـارج. والنصر بالتوديع. وتبّت بالمسـد. والإخـلاص بالأساس. والـفلق والناس بالمعـوّذتين. وكل اسم من الأسماء السابقة ورد بالأحاديث والآثار.

* * *

المكى والمدنى
وعلامات كل منهما

من المعروف أن الأمم تـولى اهتمامـها البـالغ بالمحافظة على تراثهـا الفكرى ومقومات حضـارتها، والأمة الإسلامية أحرزت قصب السـبق فى عنايتها بتراث الرسالة المحـمدية التى شرفت بهـا الإنسانية جمـعاء؛ لأنها ليـست رسالة علم أو إصلاح يحدد الاهتمام بها مدى قبـول العقل لها واستجابة الناس إليها، وإنما هى - فوق زادها الفكرى وأسسهـا الإصلاحية - دين يخامر الألبـاب ويمتزج بحبات القلوب، فنجد أعلام الـهدى من الصحابة والتابعين ومن بعـدهم يضبطون منازل القرآن آية آية، ضبطا يحدد الزمان والمـكان. . وهذا الضبط عماد قوى فى تاريخ التشريع يستند إليه الباحث فـى معرفة أسلوب الدعوة، وألوان الخطاب، والتدرج فى الأحكام والتكاليف. ومما روى فى ذلك ما قاله ابن مسعود -رضى الله عنه: والله الذى لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا نزلتَ آية من كتـاب الله إلا وأنا أعلم فيمـا نزلت، ولو أعلم أن أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه.

والدعوة إلى الله تحتاج إلى نهج خاص فى أسلوبها إزاء كل فساد فى العقيدة والتشريع والخُلق والسلوك، ولا تفرض تكاليفها إلا بعد تكوين النواة الصالحة لها وتربية اللبنات الـتى تأخذ على عاتقـها القيام بهـا، ولا تسن أسسهـا التشريعـية ونظمها الاجتـماعية إلا بعد طهارة القلب وتحديد الغـاية، حتى تكون الحياة على هدى من الله وبصيرة.

والذى يقرأ القرآن الكريم يجد للآيات المكية خصائص ليست للآيات المدنية فى وقعها ومعانيها، وإن كانت الثانية مبنية على الأولى فى الأحكام والتشريع.

فحيث كان القوم فى جاهلية تُعمى وتصم، يعبدون الأوثان ويشركون بالله، وينكرون الوحى، ويكذبون بيوم الدين، وكانوا يقولون: ﴿أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون﴾ [الصافات:١٦]. ويقولون: ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ [الجاثية:٢٤]. وهم أَلِدّاء فى الخصومة، أهل مُماراة ولجاجة فى القول عن فصاحة وبيان. حيث كان القوم كذلك، نزل الوحى المكى قوارع زاجرة، وشهبا منذرة، وحججا قاطعة، يحطم وثنيتهم فى العقيدة، ويدعوهم إلى توحيد الألوهية والربوبية، ويهتك أستار فسادهم ويسفه أحلامهم، ويقيم دلائل النبوة، ويضرب الأمثلة للحياة الآخرة وما فيها من جنة ونار، ويتحداهم - على فصاحتهم - بأن يأتوا بمثل القرآن، ويسوق إليهم المكذبين الغابرين عبرة وذكرى، فتجد فى مكى القرآن ألفاظا شديدة القرع على المسامع، تقذف حروفها شرر الوعيد وألسنة العذاب، فكَلا الرادعة الزاجرة، والصاخة، والقارعة، والغاشية، والواقعة، وألفاظ الهجاء فى فواتح السور، وآيات التحدى فى ثناياها، ومصير الأمم السابقة، وإقامة الأدلة الكونية، والبراهين العقلية.. كل هذا نجده فى خصائص القرآن المكى.

وحين تكونت الجماعة المؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وامتُحنت فى عقيدتها بأذى المشركين، فصبرت وهاجرت بدينها مُؤْثِرَةً ما عند الله على متع الحياة.. حين تكونت هذه الجماعة، نرى الآيات المدنية طويلة المقاطع، تتناول أحكام الإسلام وحدوده، وتدعو إلى الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله، وتفصل أصول التشريع، وتضع قواعد المجتمع، وتحدد روابط الأسرة وصلات الأفراد، وعلاقات الدول والأمم، كما تفضح المنافقين وتكشف دخيلتهم، وتجادل أهل الكتاب وتلجم أفواههم.. وهذا هو الطابع العام للقرآن المدنى.

عناية العلماء بالمكى والمدنى، وأمثلة على ذلك، وفوائده

قد عنى العلماء بتحقيق المكى والمدنى عناية فائقة، فتتبعوا القرآن آية آية وسورة سورة، لترتيبها وفق نزولها، مراعين فى ذلك الزمان والمكان والخطاب،

لا يكتفون بزمن النزول، ولا مكانه، بل يجمعون بين الزمان والمكان والخطاب، وهو تحديد دقيق يعطى للباحث المنصف صورة للتحقيق العلمى فى علم المكى والمدنى، وهو شأن علمائنا فى تناولهم لمباحث القرآن الأخرى.

إنه جهد كبير أن يتتبع الباحث منازل الوحى فى جميع مراحله، ويتناول آيات القرآن الكريم فيعيِّن وقت نزولها، ويحدد مكانه، ويضم إلى ذلك الضوابط القياسية لأسلوب الخطاب فيها، أهو من الموضوعات التى ارتكزت عليها الدعوة فى المدينة؟

وإذا اشتبه الأمر على الباحث لتوافر الدلائل المختلفة، رجح بينها؛ فجعل بعضها شبيها بما نزل فى المدينة. وإذا كانت الآيات نزلت فى مكان ثم حملها أحد من الصحابة فور نزولها لإبلاغها فى مكان آخر، ضبط العلماء هذا كذلك، فقالوا: ما حمل من مكة إلى المدينة أو ما حمل من المدينة إلى مكة.

قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى فى كتاب (التنبيه على فضل علوم القرآن): «من أشرف علوم القرآن علم نزوله، وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدنى، وما نزل بالمدينة وحكمه مكى، وما نزل بمكة فى أهل المدينة، وما نزل بالمدينة فى أهل مكة، وما يشبه نزول المكى فى المدنى، وما يشبه نزول المدنى فى المكى، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلا، وما نزل نهارا، وما نزل مشيعا[1]، وما نزل مفردا، والآيات المدنيات فى السور المكية، والآيات المكيات فى السور المدنية، وما حمل من المدينة إلى مكة، أو ما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، وما نزل مجملا، وما نزل مفسرا، وما اختلفوا فيه، فقال بعضهم مدنى وبعضهم مكى. فهذه خمسة وعشرون وجها، من لم يعرفها ويميز بينها، لم يَحِلّ له أن يتكلم فى كتاب الله تعالى».

وحرص العلماء على الدقة، فرتبوا السور حسب منازلها سورة بعد سورة،

(١) السيوطى فى الإتقان، ومعنى مشيعًا: أى شيعته الملائكة.

وقالوا سورة كذا نزلت بعد سورة كذا، أو ازدادوا حرصا فى الاستقصاء ففرقوا بين ما نزل ليلا وما نزل نهارا، وما نزل صيفا وما نزل شتاء، وما نزل فى الحضر وما نزل فى السفر.

وأهم الأنواع التى يتدارسها العلماء فى هذا البحث:

١ - ما نزل بمكة.

٢ - ما نزل بالمدينة.

٣ - ما اختلف فيه.

٤ - الآيات المكية فى السور المدنية.

٥ - الآيات المدنية فى السور المكية.

٦ - ما نزل بمكة وحكمه مدنى.

٧ - ما نزل بالمدينة وحكمه مكى.

٨ - ما يشبه نزول المكى فى المدنى.

٩ - ما يشبه نزول المدنى فى المكى.

١٠ - ما حمل من مكة إلى المدينة.

١١ - ما حمل من المدينة إلى مكة.

١٢ - ما نزل ليلا وما نزل نهارا.

١٣ - ما نزل صيفا وما نزل شتاء.

١٤ - ما نزل فى الحضر وما نزل فى السفر.

فهذه أنواع أساسية، يرتكز محورها على المكى والمدنى، ولذا سمى هذا «بعلم المكى والمدنى».

وأقرب ما قيل فى تعداد السور المكية والمدنية إلى الصحة، أن المدنى عشرون سورة:

١ - البقرة.	٢ - آل عمران.	٣ - النساء.	٤- المائدة
٥ - الأنفال.	٦- التوبة.	٧ - النور.	٨- الأحزاب
٩ - محمد.	١٠- الفتح.	١١- الحجرات	١٢- الحديد.

١٣- المجادلة. ١٤- الحشـر. ١٥- الممتحنة ١٦- الجـمعة.
١٧- المنافقون. ١٨- الطلاق. ١٩- التحريم. ٢٠- النصر.

وأن المختلف فيه اثنتا عشرة سورة:

١- الفاتحة. ٢ - الرعد. ٣ - الرحمن.
٤- الصف. ٥ - التغابن. ٦- المطففين.
٧- القدر. ٨ - البينة. ٩ - الزلزلة.
١٠-الإخلاص. ١١ - الفلق. ١٢- الناس.

وأن ما سوى ذلك مكى. وهو اثنتـان وثمانون سورة، فيكون مجـموع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة.

وكون بعض الآيات المكيـة فى السور المدنية: لا يقصد بوصـف السورة بأنها مكية أو مدنية أنها بأجمعها كذلك، فقد يكون فى المكية بعض آيات مدنية، وفى المدنية بعض آيات مكيـة، ولكنه وصف أغلبى حسب أكثـر آياتها، ولذا يأتى فى التسمية: سـورة كذا مكية إلا آية كذا فإنها مدنية، وسـورة كذا مدنية إلا آية كذا فإنها مكية ، كما نجد ذلك فى المصاحف.

ومن أمثلة الآيات المكية فى السـور المدنية: «سورة الأنفال» مدنيـة، واستثنى منها كـثير من العلماء قـوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]. قال مقاتل: هذه الآية نزلت بمكة، وظاهرها كذلك؛ لأنها تضـمنت ما كان من المشركين فى دار الندوة عند تآمرهم على رسول الله ﷺ قـبل الهجرة. واستثنى بعـضهم كذلك ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤] لما أخرجه البـزار عن ابن عباس أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه.

ومن أمثلة الآيات المدنيـة فى السور المكية «سورة الأنعام». قـال ابن عباس: نزلت بمكة جملة واحدة، فهى مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة: ﴿قُلْ

تعالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٣]، و«سورة الحج» مكية سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة، من أول قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج:١٩-٢١].

وأما ما نزل بمكة وحكمه مدنى، فيمثلون له بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣]، فإنها نزلت بمكة يوم الفتح، وهى مدنية لأنها بعد الهجرة، والخطاب فيها عام، ومثل هذا لا يسميه العلماء مكيا كما لا يسمونه مدنيا على وجه التعيين، بل يقولون فيه: ما نزل بمكة وحكمه مدنى.

وكذا ما نزل بالمدينة وحكمه مكى، ويمثلون له بسورة الممتحنة، فإنها نزلت بالمدينة، فهى مدنية باعتبار المكان، ولكن الخطاب فى ثناياها توجه إلى مشركى أهل مكة.. ومثل هذا صدر سورة براءة: نزلت بالمدينة، والخطاب فيه لمشركى أهل مكة.

وأما ما يشبه نزول المكى فى المدنى: فيعنى العلماء به ما كان فى السور المدنية من آيات جاء أسلوبها فى خصائصه وطابعه العام على نمط السور المكية، ومن أمثلته قوله تعالى فى سورة الأنفال وهى مدنية: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، فإن استعجالهم للعذاب كان بمكة.

وأما ما يشبه نزول المدنى فى المكى: فيعنى العلماء به ما يقابل النوع السابق، ويمثلون له بقوله تعالى فى سورة النجم: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ [النجم:٣٢]، قال السيوطى: فإن الفواحش كل ذنب فيه حد؛ والكبائر كل

ذنب عاقبته النار، واللمم ما بين الحدين من الذنوب.. ولم يكن بمكة حد ولا نحوه.

وأما ما حمل من مكة إلى المدينة: فمن أمثلته سورة ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾. أخرج البخارى عن البراء بن عازب قال: «أول من قدم علينا من أصحاب النبى ﷺ: مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن. ثم جاء عمار، وبلال، وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين. ثم جاء النبى ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم به فما جاء حتى قرأتُ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ فى سور مثلها». وهذا المعنى يصدق على كل ما حمله المهاجرون من القرآن وعلَّموه الأنصارَ.

وأما ما حُمل من المدينة إلى مكة: فمن أمثلته أول سورة براءة، حيث أَمَّرَ رسول الله ﷺ أبا بكر على الحج فى العام التاسع. فلما نزل صدر سورة براءة حَمَّلَهُ رسول الله ﷺ علىَّ بن أبى طالب ليلحق بأبى بكر حتى يبلّغ المشركين به، فأذن فيهم بالآيات وأبلغهم ألا يحج بعد العام مشرك.

وأما ما نزل ليلا وما نزل نهارا: فأكثر القرآن نزل نهارا، أما ما نزل بالليل فقد تتبعه أبو القاسم الحسن بن حجر بن حبيب النيسابورى واستخرج له أمثلة، منها: أواخر آل عمران. أخرج ابن حبان فى صحيحه، وابن المنذر وابن مردويه وابن أبى الدنيا، عن عائشة - رضى الله عنها: أن بلالا أتى النبى ﷺ يؤذنه لصلاة الصبح فوجده يبكى، فقال: يا رسول الله ما يبكيك؟ قال: **«وما يمنعنى أن أبكى وقد أُنزل علىَّ هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾** [آل عمران: ١٩٠]**». ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر».**

ومنها آية الثلاثة الذين خلفوا. وهى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾. وهم الذين قَبِلَ الله عذرهم فى التخلف بغزوة تبوك. ففى الصحيحين من حديث كعب: «فأنزل الله توبتنا حين بقى الثلث الأخير من الليل» ومنها: أول سورة الفتح، ففى البخارى من حديث عمر «**لقد نزلت عليَّ الليلة سورة هى أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس**، فقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾.

ما نزل صيفا وما نزل شتاء: ويمثل العلماء لما نزل صيفا بآية الكلالة التى فى آخر سورة النساء.

ومن أمثلته الآيات التى نزلت فى غزوة تبوك، فإنها كانت فى الصيف فى شدة الحر كما فى القرآن نفسه، ويمثلون للشتائى بآيات حديث الإفك فى سورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور:١١-٢٦]، ففى الصحيح عن عائشة «أنها نزلت فى يومٍ شات».

ومن أمثلته الآيات التى نزلت فى غزوة الخندق من سورة الأحزاب، حيث

كانت فى شدة البرد. أخرج البيهقى فى (دلائل النبوة) عن حذيفة قال: تفرق الناس عن رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب إلا اثنى عشر رجلا، فأتانى رسول الله ﷺ فقال: «**قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب**»؛ قلت: يا رسول الله، والذى بعثك بالحق ما قمت لك إلا حياء، من البرد، فأنزل الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ [الأحزاب:٩].

وقد حكى القرآن عن المنافقين قولهم: ﴿**وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ**﴾ [التوبة:٨١]، فأمر الله رسوله أن يجيبهم: ﴿**قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ**﴾ [التوبة:٨١].

أما ما نزل فى الحضر وما نزل فى السفر: فأكثر القرآن نزل فى الحضر، ولكن حياة رسول الله ﷺ كانت عامرة بالجهاد والغزو فى سبيل الله حيث يتنزل عليه الوحى فى مسيره، وقد ذكر السيوطى لما نزل فى السفر كثيرا من الأمثلة. منها أول سورة الأنفال، نزلت ببدر عقب الواقعة، كما أخرجه أحمد عن سعد بن أبى وقاص. وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [التوبة:٣٤]، أخرج أحمد عن ثوبان أنها نزلت فى بعض أسفاره ﷺ.

وأول سورة الحج، فقد أخرج الترمذى والحاكم عن عمران بن حُصَيْن قال: لما نزلت على النبى ﷺ ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**﴾ [الحج:١-٢] أنزلت عليه هذه وهو فى سفر.

وكذا سورة الفتح، فقد أخرج الحاكم وغيره عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكَم قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها. وهكذا.. والله أعلم.

وإليك فوائد العلم بالمكى والمدنى، فمن أهمها:

(١) الاستعانة به فى تفسير القرآن: فإن معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية وتفسيرها تفسيرا صحيحا، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

السبب، ويستطيع المفسـر فى ضوء ذلك عند تعارض المعنى فى آيتين أن يميز بين الناسخ والمنسوخ، فإن المتأخر يكون ناسخا للمتقدم.

(٢) تذوق أساليب القرآن والاستفـادة منها فى أسلوب الدعوة إلى الله: فإن لكل مقام مقالا، ومـراعاة مقتضى الحال من أخص معانى الـبلاغة، وخصائص أسلوب المكى فى القـرآن والمدنى منه تعطى الدارس منهـجـا لطرائق الخطاب فى الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطَب، ويمتلك عليه لُبَّهُ ومشاعره، ويعالج فيه دخيلته بالحكمة البـالغة. ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضـوعاتها وأساليب الخطاب فيهـا، كما يختلف الخطاب باخـتلاف أنماط الناس ومعتـقداتهم وأحوال بيئـتهم، ويبدو هذا واضحـا جليا بأساليب القـرآن المختلفة فى مخـاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب.

(٣) الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية: فإن تتابع الوحى على رسول الله ﷺ ساير تاريخ الدعوة بأحداثهـا فى العهد المكى والعهد المدنى منذ بدأ الوحى حـتى آخـر آية نزلت، والقرآن الكـريم هو المرجع الأصيل لهـذه السيرة الذى لا يـدع مجالا للشك فيمـا روى عن أهل السير موافـقا له، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات.

معرفة المكى والمدنى وبيان الفرق بينهما

اعـتمـد العلماء فى مـعرفـة المكى والمدنى على منهـجين أساسـيين: المنهج السماعى النقلى، والمنهج القياسى الاجتهادى.

والمنهج السمـاعى النقلى يستند إلـى الرواية الصحيـحة من الصـحابة الذين عـاصروا الوحى، وشـاهدوا نزوله، أو عن التـابعين الذين نقلـوا عن الصحـابة وسمعوا منهم كيفية النزول ومواقعه وأحداثه. . ومعظم ما ورد فى المكى من هذا القبيل، وفى الأمـثلة السابقة خير دليل على ذلك، وقد خُـصَّتْ بها كتب التفسير بالمأثور ومؤلفـات أسباب النزول، ومباحث علوم القرآن، ولم يَرِدْ عن رسـول الله ﷺ شىء فى ذلك، حـيث إنه ليس من الواجبـات التى تجب

على الأمة إلا بالقدر الذى يعرف به الناسخ والمنسوخ. قال القاضى أبو بكر ابن الطيب الباقلانى فى (الانتصار): «إنما يرجع فى معرفة المكى والمدنى لحفظ الصحابة والتابعين، ولم يرد عن رسول الله ﷺ فى ذلك قول لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب فى بعضه على أهل العلم ومعرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ، فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول ﷺ».

والمنهج القياسى الاجتهادى يستند إلى خصائص المكى وخصائص المدنى، فإذا ورد فى السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدنى أو تتضمن شيئا من حوادثه، قالوا إنها مدنية.. وإذا ورد فى السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكى قالوا إنها مكية، وإذا وجد فيها خصائص المدنى قالوا إنها مدنية. وهذا قياس اجتهادى، ولذا قالوا مثلا: كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية، وكل سورة فيها فريضة أو حد مدنية، وهكذا. قال الجعبرى: والنقل والعقل هما طريقا المعرفة السليمة والتحقيق العلمى.

وأما الفرق بين المكى والمدنى

فللعلماء فى الفرق بين المكى والمدنى ثلاثة آراء اصطلاحية، كل رأى منها بنى على اعتبار خاص.

الأول: اعتبار زمن النزول.. فالمكى: ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة، والمدنى: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة.. فما نزل بعد الهجرة ولو بمكة أو عرفة: مدنى، كالذى نزل عام الفتح، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**﴾ [النساء:٥٨]، فإنها نزلت بمكة فى جوف الكعبة عام الفتح الأعظم، أو نزل بحجة الوداع كقوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ [المائدة:٣]. وهذا الرأى أولى من الرأيين بعده لحصره واطراده.

الثانى: اعتبار مكان النزول.. فالمكى: ما نزل بمكة وما جاورها كمِنَى وعرفات والحديبية، والمدنى: ما نزل بالمدينة وما جاورها كأُحُد وقُباء وسَلْع.

ويترتب على هذا الرأى عدم ثنائيــة القسمة وحصرها، فـما نزل بالأسفار أو بتبوك أو ببيت المقدس لا يدخل تحت القسمــة، فلا يسمى مكيا ولا مدنيا. . كما يترتب عليه كذلك أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يكون مكيا.

الثالث: اعتبـار المخاطب. . فالمكى ما كان خطابـا لأهل مكة، والمدنى ما كان خطابا لأهل المدينة، وينبغى على هذا الرأى عند أصحـابه أن ما فى القرآن من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مكى، وما فيه من قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مدنى.

وبالملاحظة تبين أن أكـثر سـور القرآن لم تفـتتح بأحد المخـاطبين، وأن هذا الضابط لا يطرد؛ فسورة البقـرة مدنية وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:١٦٨]، وسورة النساء مدنية وأولها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وسورة الحج مكيـة وفيـها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج:٧٧]، والقرآن الكريم هو خطاب الله للخلق أجمعين.

وكـمـا يقـول الشيـخ القطان: إنه يجـوز أن يخـاطَب المؤمنون بصـفـاتهم وبأسمائهم وأجناسهم، كما يجوز أن يأمر غير المؤمنين بالعبادة، كما يأمر المؤمنين بالاستمرار عليها والازدياد منها.

وأما مميزات المكى والمدنى

فبعـد أن استقرأ العلماء السـور المكية والسور المدنية واستنـبطوا منها ضوابط قياسية لكل من المكى والمدنى تُبَيِّنُ خـصائص الأسلوب فى كل منهما، بعد ذلك وضعوا علامات بها يتميز المكى من المدنى، وإليك:

ضوابط المكى ومميزاته الموضوعية

أولا: كل سورة فيها لفظ «كلا» فهى مكية.

ثانيا: كل سـورة فيـها سـجدة فـهى مكية. ولم تَرِد «كـلا» إلا فى النصف الأخير من القرآن، وذكرت ثلاثا وثلاثين مرة فى خمس عشرة سورة.

ثالثا: كل سورة فيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وليس فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهى مكية، إلا سورة الحج ففى أواخرها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾، ومع هذا فإن كثيرا من العلماء يرى أن هذه الآية مكية كذلك.

رابعا: كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهى مكية، سوى البقرة.

خامسا: كل سورة تفتتح بحروف الهجاء كـ «ألم»، و«كهيعص» و«حم» و«المر» ونحو ذلك فهى مكية، سوى البقرة وآل عمران، واختلفوا فى سورة الرعد.

سادسا: كل سورة ذكرت فيها قصة آدم وإبليس فهى مكية، سوى البقرة.

هذا من ناحية الضوابط.

أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فإجمالها فيما يأتى:

امتازت السور المكية بالدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، وإثبات الرسالة وإثبات البعث والجزاء، وذكر القيامة وهولها، والنار وعذابها، والجنة ونعيمها، ومجادلة المشركين بالحجة القاطعة والأدلة الواقعة، ووضع الأسس العامة للتشريع والفضائل والأخلاق التى يقوم عليها كيان المجتمع، وفضح جرائم المشركين فى سفك الدماء وأكل أموال الناس بالباطل ووأد البنات وما كانوا عليه من سوء العادات، وذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجرا لهم حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم، وتسلية لرسول الله ﷺ حتى يصبر على أذاهم ويطمئن إلى الانتصار عليهم، وقصر الفواصل -**الآيات**- مع قوة الألفاظ والإيجاز فى العبارة بما يقرع الأسماع ويصخ الآذان ويصعق القلوب، ويكثر من تأكيد المعنى بالقَسَم الكثير، وكذلك قصر السور إلا القليل؛ إذ إن هذه العلامات والمميزات أغلبية لا حتمية.

وأما ضوابط المدنى وميزاته الموضوعية فهى كما يلى:

أولا: أن كل سورة فيها فريضة أو حد - يعنى تشريعا - فهى مدنية.

ثانيا: كل سورة فيها ذكر المنافقين فهى مدنية.

ثالثا: كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهى مدنية.

هذا من ناحية الضوابط.

أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتى:

بيان العبادات والمعاملات والحدود، ونظام الأسرة والمواريث، وفضل الجهاد، والصلات الاجتماعية، والعلاقات الدولية فى السلم والحرب، وقواعد الحكم، ووسائل التشريع، ومخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ودعوتهم إلى الإسلام، وبيان تحريفهم لكتاب الله وتجنيهم على الحق، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، وتحليل نفسية المنافقين وإزاحة الستار عن خباياهم وبيان خطرهم على الدين، وطول السور والآيات فى أسلوب يقرر الشريعة ويوضح مراميها وأهدافها، على أن هذه الضوابط علامات أغلبية لا حتمية كما سبق ذلك فى المكى؛ إذ يوجد فى السور المكية بعض ما فى المدنية من العلامات لكن قليل وبالعكس.

***

معرفة أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه

اعلم -وفقنى الله وإياك- أن التعبير عن تلقى رسول الله ﷺ للقرآن بنزوله عليه يشعر بقوة يلمسها المرء فى تصور كل هبوط من أعلى، ذلك لعلو منزلة القرآن وعظمة تعاليمه التى حولت مجرى حياة البشرية فيها تغيرا ربط السماء بالأرض، ووصل الدنيا بالآخرة، ومعرفة تاريخ التشريع الإسلامى فى مصدره الأول والأصيل - وهو القرآن - تعطى الدارس صورة عن التدرج فى الأحكام ومناسبة كل حكم للحالة التى نزل فيها دون تعارض بين السابق واللاحق. وقد تناول هذا الباب أول ما أنزل من القرآن على الإطلاق، وآخر ما نزل على الإطلاق، كما تناول أول ما نزل وآخر ما نزل فى كل تشريع من تعاليم الإسلام، كالأطعمة، والأشربة، والقتال، ونحو ذلك. وللعلماء فى أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، وآخر ما نزل كذلك أقوال، نجملها ونرجح بينها فيما يأتى:

فأول ما نزل

أصح الأقوال أن أول ما نزل على الإطلاق هو قوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[**العلق**:١-٥]، ويدل عليه ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، فكان يأتى حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة -رضى الله عنها- فتزوده لمثلها.. حتى فاجأه الحق وهو فى غار

حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ. قال رسول الله ﷺ: «**فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ؛ فقلت: ما أنا بقارئ. فغطَّنِي الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى، فقال: اقرأ؛ فقلت: ما أنا بقارئ؛ فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى، فقال:** ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ - حتى بلغ - ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾»، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره..... الحديث.

وقيل إن أول ما نزل هو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ لما رواه الشيخان عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - أى القرآن أنزل قبلُ؟ قال: يأيها المدثر. قلت: أو اقرأ باسم ربك؟ قال: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ قال: «**إنى جاورت بحراء، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادى، فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وشمالى، ثم نظرت إلى السماء، فإذا هو - يعنى جبريل - فأخذتنى رجفة، فأتيت خديجة فأمرتهم فدثرونى، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾**».

وأجيب عن حديث جابر بأن السؤال كان عن نزول سورة كاملة، فبَيَّنَ جابر أن سورة المدثر نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة اقرأ، فإن أول ما نزل منها صدرها. ويؤيد هذا ما فى الصحيحين أيضا عن أبى سلمة عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه: «**بينا أنا أمشى، سمعت صوتا من السماء، فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض، فرجعت، فقلت: زَمِّلُونى، فَدَثِّرُونى، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾**» فهذا الحديث يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء.

أو تكون المدثر أول سورة نزلت بعد فترة الوحى، وقد استخرج جابر ذلك باجتهاده، فتُقَدَّم عليه رواية عائشة، ويكون أول ما نزل من القرآن على الإطلاق «اقرأ»، وأول سورة نزلت كاملة، أو أول ما نزل بعد فترة الوحى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾.. أو أول ما نزل للرسالة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، وللنبوة: ﴿اقرأ﴾.

وقيل: إن أول ما نزل هو سورة «الفاتحة»، ولعل المراد أولُ سورةٍ كاملةٍ.

وقيل: «بسم الله الرحمن الرحيم». والبسملة تنزل صدرا لكل سورة، ودليل هذين أحاديث مرسلة. والقول الأول المؤيد بحديث عائشة هو الراجح المشهور.

وقد ذكر الزركشي فى (البرهان) حديث عائشة الذى نص على أن أول ما نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ﴾، ثم قال: «وجمع بعضهم بينهما بأن جابرا سمع النبى ﷺ يذكر قصة بدء الوحى، فسمع آخرها ولم يسمع أولها، فتوهم أنها أول ما نزلت، وليس كذلك. نعم هى أول ما نزل بعد سورة «اقرأ» وفترة الوحى؛ لما ثبت فى الصحيحين أيضا عن جابر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ كان يحدث عن فترة الوحى، قال فى حديثه: «**بينا أنا أمشى سمعت صوتا من السماء، فرفعت رأسى، فإذا الملك الذى جاءنى بحراءَ جالس على كرسى بين السماء والأرض، فجُئثتُ -أى فزعتُ- منه فرجعت، فقلت: زملونى، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ﴾..**». فقد أخبر فى هذا الحديث عن الملك الذى جاءه بحراء قبل هذه المرة، وأخبر فى حديث عائشة أن نزول «اقرأ» كان فى غار حراء، وهو أول وحى، ثم فَتَرَ بعد ذلك.. وأخبر فى حديث جابر أن الوحى تتابع بعد نزول ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فعُلِمَ بذلك أن (اقرأ) أول ما نزل مطلقا، وأن سورة المدثر بعده».

وكذلك قال ابن حبان فى صحيحه: «لا تضاد بين الحديثين، بل أول ما نزل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ بغار حراء، فلما رجع إلى خديجة - رضى الله عنها - وصبت عليه الماء البارد، أنزل الله عليه فى بيت خديجة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. فظهر أنه لما نزل عليه ﴿اقرأ﴾ رجع فتدثر، فأُنزل عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾..».

وقيل: أول ما نزل سورة الفاتحة، روى ذلك من طريق أبى إسحاق عن أبى ميسرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الصوت انطلق هاربا، وذكر نزول الملك عليه وقوله: قل ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آخرها.

وقال القاضى أبو بكر فى (الانتصار) وهذا الخبر منقطع، وأثبت الأقاويل أن أول ما نزل من الآيات: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، وأول ما نزل من أوامر التبليغ:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، وأول ما نزل من السور: سورة الفاتحة، وهذا كما ورد فى الحديث: «**أول ما يحاسَب به العبد: الصلاة**»، و «**أول ما يُقضى فيه: الدماء**».
وجمع - أى القاضى أبو بكر - بينهما بأن أول ما يُحكم فيه من المظالم التى بين العباد: الدماء، وأول ما يحاسَب به العبد من الفرائض البدنية الصلاة.

وقيل: أول ما نزل للرسالة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، وللنبوة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾؛ فإن العلماء قالوا: قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ دال على نبوة محمد ﷺ؛ لأن النبوة عبارة عن الوحى إلى الشخص على لسان الملك بتكليف خاص، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ دليل على رسالته ﷺ؛ لأنها عبارة عن الوحى إلى الشخص على لسان الملك بتكليف عام.. والله أعلم.

آخر ما نزل

١ - قيل: آخر ما نزل آية الربا؛ لما أخرجه البخارى عن ابن عباس -رضى الله عنهما - قال: آخر آية نزلت آية الربا، والمراد بها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ الآية [**البقرة**:٢٧٨].

٢ - وقيل: آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية [**البقرة**:٢٨١] لما رواه النسائى وغيره عن ابن عباس وسعيد بن جبير: آخر شىء نزل من القرآن ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية.

٣ - وقيل: آخر ما نزل آية الدَّيْن؛ لما روى عن سعيد بن المسيب: أنه بلغه أن أحدث القرآن عهدا بالعرش آية الدَّين، والمراد بها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ الآية [**البقرة**:٢٨٢].

ويجمع بين الروايات الثلاث بأن هذه الآيات نزلت دفعة كترتيبها فى المصحف: آية الربا، فآية ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾، فآية الدين؛ لأنها فى قصة واحدة.. فأخبر كل راوٍ عن بعض ما نزل بأنه آخر، وذلك صحيح، وبهذا لا يقع التنافى بينها.

٤ - وقيل: آخر ما نزل آية الكلالة كما روى الشيخان، حُمِلَت الآخرية هنا فى قول البراء على أنها مقيدة بما يتعلق بالمواريث.

٥ - وقيل: آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة، ففى (المُسْتَدْرَك) عن أُبى بن كعب: آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] إلى آخر السورة، وحُملَ هذا على أنها آخر ما نزل من سورة براءة. رواه مسلم عن ابن عباس، ويُحْمَلُ هذا الخبر على أن هذه السورة آخر ما نزل مُشْعِرًا بوفاة النبى ﷺ كما فهم بعض الصحابة منها ذلك، أو أنها آخر ما نزل من السور.

٦ - وقيل: آخر ما نزل سورة المائدة، لما رواه الترمذى والحاكم فى ذلك عن عائشة - رضى الله عنها - وأجيب: بأن المراد أنها آخر سورة نزلت فى الحلال والحرام، فلم تُنْسَخْ فيها أحكام.

٧ - وقيل: آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥] لما أخرجه ابن مردويه من طريق مجاهد عن أم سلمة أنها قالت: آخر آية نزلت هذه الآية: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم﴾ إلى آخرها، وذلك أنها قالت: يا رسول الله يُذكر الرجال ولا يذكر النساء؛ فنزلت: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ونزلت: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ ونزلت هذه الآية، فهى آخر الثلاث نزولا. وآخر ما نزل بعدها كان ينزل فى الرجال خاصة، ويتضح من الرواية أن الآية المذكورة آخر الآيات الثلاث نزولا، وأنها آخر ما نزل بالنسبة إلى ما ذُكر فيه النساء.

٨ - وقيل: آخر ما نزل آية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٣٩] لما أخرجه البخارى وغيره عن ابن عباس قال: هذه الآية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ هى آخر ما نزل، وما نسخها شىء، والتعبير بقوله «وما نسخها شىء» يدل على أنها آخر ما نزل فى حكم قتل المؤمن عمدا.

٩ - وعن ابن عباس قال: آخر سورة نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.

وهذه الأقوال ليس فيها شىء مرفوع إلى النبى ﷺ، وكلٌّ قال بضربٍ من الاجتهاد وغلبة الظن.

ويحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من الرسول، أو قال ذلك باعتبار آخر ما نزل فى تشريع خاص، أو آخر سورة نزلت كاملة على النحو الذى خَرَّجْنا به كل قول منها.

أما قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] فإنها نزلت بعرفة عام حجة الوداع، ويدل ظاهرها على إكمال الفرائض والأحكام، وقد سبقت الإشارة إلى ما روى فى نزول آية الربا، وآية الدين وآية الكلالة، وغيرها بعد ذلك. لذا حمل كثير من العلماء إكمال الدين فى هذه الآية على أن الله أتم عليهم نعمته بتمكينهم من البلد الحرام وإجلاء المشركين عنه، أو حجهم وحدهم دون أن يشاركهم فى البيت الحرام أحد من المشركين، وقد كان المشركون يحجون معهم من قبل؛ وذلك من تمام النعمة ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾.

قال القاضى أبو بكر الباقلانى فى (الانتصار) معلقا على اختلاف الروايات عن آخر ما نزل: «هذه الأقوال ليس فيها شىء مرفوع إلى النبى ﷺ، ويجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن، أو يحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه عن النبى ﷺ فى اليوم الذى مات فيه أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو، ويحتمل أيضا أن تنزل هذه الآية - التى هى آخر آية تلاها الرسول ﷺ - مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك، فيظن أنه آخر ما نزل فى الترتيب». ثم إليك:

أوائل موضوعية

وقد تناول العلماء أوائل ما نزل بالنسبة إلى موضوعات خاصة، ومن ذلك:

١ - **أول ما نزل فى الأطعمة**: فأول آية نزلت بمكة آية الأنعام: ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام:١٤٥]، ثم آية النحل: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٤-١١٥].

ثم آية البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

ثم آية المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

٢ - أول ما نزل فى الأشربة: أول آية نزلت فى الخمر آية البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم آية النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

ثم آية المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

عن ابن عمر قال: نزل فى الخمر ثلاث آيات، فأول شيء: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الآية، فقيل: حُرِّمَت الخمر، فقالوا: يا رسول الله، دعنا ننتفع بها كما قال الله. فسكت عنهم. ثم نزلت هذه الآية: ﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: **«حرمت الخمر»**. فقالوا: يا رسول الله، لا نشربها قرب الصلاة. فسكت عنهم. ثم نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: **«حرمت الخمر»**.

٣ - أول ما نزل فى القتال: عن ابن عباس قال: أول آية نزلت فى القتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].. والله أعلم.

فوائد هذا المبحث

ولمعرفة أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن فوائد، أهمها:

(أ) بيان العناية التى حظى بها القرآن الكريم، صيانةً له وضبطا لآياته.

فقد وعى الصحابة هذا الكتاب آية آية، فعرفوا متى نزلت، وأين نزلت، حيث كانوا يتلقون عن رسول الله ﷺ ما يتنزل عليه من القرآن تَلَقِّى المؤمنين لأصول دينهم، ومبعث إيمانهم، ومصدر عزهم ومجدهم، وكان من أثر ذلك سلامة القرآن من التغيير والتبديل، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

(ب) إدراك أسرار التشريع الإسلامى فى تاريخ مصدره الأصيل، فإن آيات القرآن الكريم عالجت النفس البشرية بهداية السماء، وأخذت الناس بالأساليب الحكيمة التى ترقى بنفوسهم فى سلم الكمال، وتدرجت بهم فى الأحكام التى يستقيم بها منهج حياتهم على الحق، وتنظم شئون مجتمعهم على الطريق الأقوم.

(ج) تمييز الناسخ عن المنسوخ، فقد ترد الآيتان أو الآيات فى موضوع واحد، ويختلف الحكم فى إحداها عن الأخرى، فإذا عُرِف ما نزل أولا وما نزل آخرا كان حكم ما نزل آخرا ناسخا لحكم ما نزل أولا.

مرات نزول القرآن

قد شرف الله القرآن الكريم بأن جعل له تنزيلات ثلاث:

الأولى: إلى اللوح المحفوظ، ودليله قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾، وكان هذا الوجود فى اللوح بطريقة وفى وقت لا يعلمه إلا الله جل جلاله ومن أطلعه من عباده على غيبه، وكان جملة لا مفرقا؛ لأنه الظاهر من اللفظ عند الإطلاق ولا صارف عنه، وليس هناك حكمة لتنجيمه فى هذا النزول كما حصل فى تنجيمه عند نزوله على الرسول ﷺ.

وترجع حكمة هذا النزول إلى الحكمة العامة من وجود اللوح نفسه وإقامته سجلا جامعا لكل ما قضى الله وقدر، وما كان وما يكون من عوالم الإيجاد والتكوين، فهو شاهد ناطق، ومظهر من أروع المظاهر الدالة على عظمة الله وقدرته وعلمه وإرادته وحكمته وواسع سلطانه. ولا ريب أن الإيمان به يقوى إيمان العبد بربه ويبعث الطمأنينة إلى نفسه، والثقة بكل ما يظهره الله لخلقه من

ألوان هدايته وشرائعه وكتبه وسائر أقضيته وشئونه فى عباده، كما يحمل الناس على السكون والرضا تحت سلطان القضاء والقدر، ومن هنا تهون عليه الحياة بسرّائها وضرائها كما قال جل وعلا: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

على أن الإيمان باللوح وبالكتابة فيه أثر صالح فى استقامة العبد المؤمن على الجادة وتفانيه فى طاعة الله ومرضاته، ويبعده عن مساخطه ومعاصيه لاعتقاده أنها مسطورة عند الله في لوحه، مسجلة لديه فى كتابه. قال جل ذكره ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٣].

الثانى من التنزيلات: النزول إلى بيت العزة فى السماء الدنيا، ودليله قوله سبحانه فى سورة الدخان: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [الدخان:٣]، وكذا قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، وفى سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة:١٨٥].

فهذه الآيات تدل على أن القرآن أنزل فى ليلة واحدة توصف بأنها مباركة من آية الدخان، وتسمى ليلة القدر من سورة القدر، وهى من ليالى شهر رمضان، وذلك جمعا بين النصوص الثلاثة فى العمل بها ودفعا للتعارض فيما بينها.

ومعلوم بالأدلة القاطعة أن القرآن أنزل على النبى ﷺ مُفَرَّقًا مُنَجَّمًا حسب الحوادث والوقائع والأسئلة التى تختلج فى صدور العرب، ولم ينزل عليه فى ليلة واحدة بل فى ثلاث وعشرين سنة فتَعَيَّنَ أن يكون النزول التى دلت عليه الآيات الثلاث السابقة، نزولا من نوع آخر غير النزول على النبى ﷺ. وقد جاءت الأخبار الصحيحة لمكان هذا النزول، وأنه فى بيت العزة من السماء الدنيا كما تدل عليه الروايات الآتية: فقد أخرج الحاكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: فُصِلَ القرآن من الذكر فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزل به على النبى ﷺ. وأخرج النسائى والحاكم والبيهقى من طريق داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: أُنزل القرآن جملة

واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك فى عشرين سنة. ثم قرأ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣]، ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦].

وأخرج الحاكم والبيهقى وغيرهما من طريق منصور عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزّله على رسوله ﷺ.

وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس، أنه سأله عطية بن الأسود فقال: أَوْقَعَ فى قلبى الشك قولُه تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾، وهذا أنزل فى شوال وفى ذى القعدة وفى ذى الحجة وفى المحرم وصفر وشهر ربيع. فقال ابن عباس: إنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم مفرقا يتلو بعضه بعضا على تؤدة ورفق.

فهذه الأحاديث الأربعة من جملة أحاديث ذكرت فى هذا الباب، وكلها صحيحة كما قال العلامة السيوطى، وهى أحاديث موقوفة عن ابن عباس. غير أن لها حكم المرفوع إلى النبى ﷺ لما هو مقرر من أن قول الصحابى الذى لا مجال للرأى فيه ولم يُعرف بالأخذ عن الإسرائيليات فحكمه حكم المرفوع، ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة من أنباء الغيب التى لا تُعرف إلا من المعصوم، وابن عباس لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات، فثبت الاحتجاج بهذه الأحاديث. وكان هذا النزول جملة واحدة فى ليلة واحدة هى ليلة القدر كما علمت؛ لأنه المتبادر من التصور للنصوص الثلاثة السابقة وللتنصيص على ذلك فى الأحاديث التى عرضت من قبل. بل ذكر السيوطى أن القرطبى نقل حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة واحدة إلى بيت العزة فى السماء الدنيا، والحكمة فى هذا النزول - كما نقل العلامة أبو شامة - هى تفخيم أمر القرآن وأمر من نزل عليه بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، وبإنزاله مرتين: مرة جملة، ومرة مفرقا. بخلاف الكتب السابقة، فقد كانت تنزل جملة ومرة واحدة.

أما التنزيل الثالث للقرآن فهو واسطة عقد التنزيلات؛ لأنه المرحلة الأخيرة، فمنها شع النور على العالم، وبه وصلت هداية الله إلى الخلق. وكان هذا النزول بواسطة أمين الوحى جبريل، يهبط به على قلب النبى ﷺ كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ -١٩٥].

وخلاصة القول فى كيفية أخذ جبريل القرآن وعمن أخذ، فهى كما قال العلامة الزرقانى فى (مناهل العرفان): قال البيهقى فى معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾: يريد -والله أعلم- أنَّا أسمعنا المَلَكَ وأفهمناه وأنزلناه بما سمع. ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الله سماعا، ويرى أنه أمثل الأقوال من ناحية أخْذ جبريل عن الله - عز وجل - لا من ناحية تأويل النزول فى الآية بابتداء النزول. ويؤيد ذلك ما أخرجه الطبرانى من حديث النواس بن سمعان مرفوعا إلى النبى ﷺ: «إذا تُكلم بالوحى أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله، فإذا سمع أهل السماء صعقوا وخروا سجدا، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله بوحيه بما أراد، فينتهى به حيث أمر» انتهى.

ومهما يكن من أمر فإن هذا الموضوع لا يتعلق به كبير غرض ما دمنا نقطع بأن مرجع التنزيل هو الله وحده تعالى، المهم أن نعلم فى هذا المقام أن الذى نزل به جبريل على النبى ﷺ هو القرآن، باعتبار أنه الألفاظ الحقيقية المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس، وهذه الألفاظ هى كلام الله وحده لا دخل لجبريل ولا لمحمد ﷺ فى إنشائها وترتيبها، بل الذى رتبها أولا هو الله سبحانه وتعالى، ولذلك تنسب له دون سواه وإن نطق بها جبريل من لَدُنْ نزول القرآن إلى قيام الساعة.

وأشار بعض العلماء إلى حكمة ذلك أنه تعظيم لشأن القرآن، وتشريف المُنَزَّل عليه. قال السيوطى: «قيل السر فى إنزاله جملة إلى السماء: تفخيم أمره وأمر من نزل عليه، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لينزل عليهم. ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجما بحسب الوقائع، لهبط به على

الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله باين بينه وبينها، فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرقا، تشريفا للمنزل عليه». وقال السخاوى فى جمال القراء: «فى نزوله إلى السماء جملة تكريم بنى آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة وتعريفهم عناية الله بهم، ورحمته لهم. ولهذا المعنى أمر الله سبعين ألفا من الملائكة أن تشيع سورة الأنعام، وزاد سبحانه فى هذا المعنى بأن أمر جبريل بإملائه على السفرة الكرام البررة وإنساخهم إياه وتلاوتهم له».

***

نزول القرآن مُنَجَّمًا

يقول تعالى فى التنزيل: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢–١٩٥]، ويقول: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

ويقول: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية:٢].

ويقول: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣].

ويقول: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٧].

فهذه الآيات ناطقة بأن القرآن الكريم كلام الله بألفاظه العربية، وأن جبريل نزل به على قلب رسول الله ﷺ، وأن هذا النزول غير النزول الأول إلى سماء الدنيا، فالمراد به نزوله منجما، ويدل التعبير بلفظ التنزيل دون الإنزال على أن المقصود النزول على سبيل التدريج والتنجيم، فإن علماء اللغة يفرقون بين الإنزال والتنزيل، فالتنزيل لما نزل مفرقا، والإنزال أعم.

وقد نزل القرآن منجما فى ثلاث وعشرين سنة، منها ثلاث عشرة بمكة على الرأى الراجح، وعشر بالمدينة، وجاء التصريح بنزوله مفرقا فى قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦].

أى جعلنا نزوله مفرقا كى تقرأه على الناس على مَهَل وتَثَبُّت، ونزلناه تنزيلا حسب الوقائع والأحداث.

أما الكتب السماوية الأخرى - كالتوراة والإنجيل والزبور - فكان نزولها جملة ولم تنزل مفرقة، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان:٣٢].

فهذه الآية دليل على أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة، وهو ما عليه جمهور العلماء، ولو كان نزولها مفرقا لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن منجما، فمعنى قولهم ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾: هلا أنزل القرآن دفعة واحدة كسائر الكتب؟ وما له أنزله على التنجيم؟ ولِمَ أنزل مفرقا ؟ ولم يرد الله عليهم بأن هذه سنَّته فى إنزال الكتب السماوية كلها كما رد عليهم فى قولهم: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٧] بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠]، وكما رد عليهم فى قولهم: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً﴾ [الإسراء:٩٤] بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء:٩٥]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء:٧]. بل أجابهم الله تعالى ببيان وجه الحكمة فى تنزيل القرآن الكريم منجما بقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾؛ أى كذلك أُنزل مفرقا لحكمة هى تقوية قلب رسول الله، ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ أى قدرناه آية بعد آية بعضه إثر بعض، أو بيناه تبيينا. . فإن إنزاله مفرقا حسب الحوادث أقرب إلى الحفظ والفهم، وذلك من أعظم أسباب التثبيت. والذى استقرئ من الأحاديث الصحيحة أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة: خمس آيات، وعشر آيات، وأكثر وأقل، وقد صح نزول العشر آيات فى قصة الإفك جملة، وصح نزول العشر آيات فى أول المؤمنين جملة، وصح نزول ﴿غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾ وحدها.

وإليك حكمة نزول القرآن منجما

نستطيع أن نستخلص حكمة نزول القرآن الكريم منجما من النصوص الواردة فى ذلك. ونجملها فيما يأتى:

١ - **الحكمة الأولى: تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ**: لقد وجه رسول الله ﷺ دعوته

إلى الناس، فوجد منهم نفورا وقسوة، وتصدى له قوم غلاظ الأكباد، فُطروا على الجفوة وجُبلوا على العناد، يتعرضون له بصنوف الأذى والعنت، مع رغبته الصادقة فى إبلاغهم الخير الذى يحمله إليهم، حتى قال الله فيه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦]. فكان الوحى يتنزل على رسول الله ﷺ فترة بعد فترة، بما يثبت قلبه على الحق، ويشد عزمه للمضى قُدُمًا فى طريق دعوته، لا يبالى بظلمات الجهالة التى يواجهها من قومه، فإنها سحابة صيف عما قريب تقشع.

ويبين الله له سننه فى الأنبياء السابقين الذين كُذبوا وأوذوا، فصبروا حتى جاءهم نصر الله، وأن قومه لم يكذبوه إلا عُلُوا واستكبارا، فيجد -عليه الصلاة والسلام- فى ذلك السُّنَّة الإلهية فى موكب النبوة عبر التاريخ التى يتأسى بها تسلية له عن أذى قومه، وتكذيبهم له، وإعراضهم عنه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام:٣٣-٣٤].

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران:١٨٤].

ويأمره القرآن بالصبر كما صبر الرسل من قبله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

ويُطَمْئِنُ نفسَه بما تكفل الله به من كفايته أمر المكذبين: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل:١٠-١١].

وهذا هو ما جاء فى حكمة قصص الأنبياء بالقرآن: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠].

وكلما اشتد ألم رسول الله ﷺ لتكذيب قومه، وداخله الحزن لأذاهم، نزل القرآن دعما وتسلية له، يهدد المكذبين بأن الله يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ما كان منهم: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يونس:٧٥].

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس:٦٥].

كما يبشره الله تعالى بآيات المَنَعة والغَلَبَة والنصر: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]. ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:٣]. ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١].

وهكذا كانت آيات القرآن تتنزل على رسول الله ﷺ تباعا تسليةً، وعزاء بعد عزاء، حتى لا يأخذ منه الحزن مأخذه، ولا يستبد به الأسى، ولا يجد اليأس إلى نفسه سبيلا، فله فى قصص الأنبياء أسوة، وفى مصير المكذبين سلوى، وفى العدة بالنصر بشرى، وكلما عرض له شىء من الحزن بمقتضى الطبع البشرى تكررت التسلية، فثبت قلبه على دعوته واطمأن إلى النصر.

وهذه الحكمة هى التى رد الله بها على اعتراض الكفار فى تنجيم القرآن بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان:٣٢].

قال أبو شامة: «فإن قيل: ما السر فى نزوله منجما؟ وهلا أُنزل كسائر الكتب جملة؟ قلت: هذا سؤال قد تولى الله جوابه، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، يعنون: كما أنزل على من قبله من الرسل؛ فأجابهم تعالى بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أى أنزلناه مفرقا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أى لنقوى به قلبك، فإن الوحى إذا كان يتجدد فى كل حادثة، كان أقوى للقلب وأشد عناية بالمرسَل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملَك إليه، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تَقْصُرُ عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون فى رمضان لكثرة لقياه جبريل».

٢ - **الحكمة الثانية: التحدى والإعجاز:** فالمشركون تمادوا فى غيهم، وبالغوا فى عتوهم، وكانوا يسألون أسئلة تعجيز وتحدٍّ يمتحنون بها رسول الله فى نبوته، ويسوقون له عن ذلك كل عجيب من باطلهم، كعلم الساعة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأعراف:١٨٧]، واستعجال العذاب: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج:٤٧]. فينزل القرآن بما يبين وجه الحق لهم، وبما هو أوضح معنى فى مؤدّى أسئلتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [الفرقان:٣٣]. أى: ولا يأتونك بسؤال عجيب من أسئلتهم الباطلة إلا أتيناك نحن بالجواب الحق، بما هو أحسن معنى من تلك الأسئلة التى هى مَثَل فى البطلان. وحيث عجبوا من نزول القرآن منجما بَيَّنَ الله لهم الحق فى ذلك، فإن تحديهم به مفرقا مع عجزهم عن الإتيان بمثله أَدْخَلُ فى الإعجاز، وأبلغ فى الحجة من أن ينزل جملة ويقال لهم:

جيئوا بمثله، ولهذا جاءت الآية عقب اعتراضهم: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، أي: لا يأتونك بصفة عجيبة يطلبونها -كنزول القرآن جملة- إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك فى حكمتنا، وبما هو أبين معنى فى إعجازهم، وذلك بنزوله مفرقا، ويشير إلى هذه الحكمة ما جاء ببعض الروايات فى حديث ابن عباس عن نزول القرآن: «فكان المشركون إذا أحدثوا شيئا أحدث الله لهم جوابا»[1].

٣ - **الحكمة الثالثة: تيسير حفظه وفهمه:** لقد نزل القرآن الكريم على أمة أُمِّيَّة لا تعرف القراءة والكتابة، سِجِلُّها ذاكرة حافظة، ليس لها دراية بالكتابة والتدوين حتى تكتب وتدون، ثم تَحفظ وتفهم. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢]. وقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ [الأعراف:١٥٧]. فما كان للأمة الأمية أن تحفظ القرآن كله بيسر لو نزل جملة واحدة وأن تفهم معانيه وتتدبر آياته، فكان نزوله مفرقا خير عون لها على حفظه فى صدورها وفهم آياته، كلما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصحابة وتدبروا معانيها، ووقفوا عند أحكامها. واستمر هذا منهجا للتعليم فى حياة التابعين. عن أبى نضرة قال: كان أبو سعيد الخدرى يعلمنا القرآن خمس آيات بالغَدَاة، وخمس آيات بالعَشِيّ، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات[2]. وعن خالد بن دينار قال: قال لنا أبو العالية: تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإن النبى ﷺ كان يأخذه من جبريل خمسا خمسا[3]. وعن عمر قال: تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبى ﷺ خمسا خمسا [4].

٤ - **الحكمة الرابعة: مسايرة الحوادث والتدرج فى التشريع:** فما كان الناس لِيَسْلَس قيادهم طفرة للدين الجديد لولا أن القرآن عالجهم بحكمة، وأعطاهم من

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن عساكر.

(٣) أخرجه البيهقى.

(٤) أخرجه البيهقى فى شِعب الإيمان.

دوائه الناجع جرعات يستطبون بها عن الفساد والرذيلة، فكلما حدثت حادثة بينهم نزل الحكم فيها يجلى لهم صبحها ويرشدهم إلى الهدى، ويضع لهم أصول التشريع حسب المقتضيات أصلا بعد آخر، فكان هذا طبا لقلوبهم.

لقد كان القرآن الكريم بادئ ذى بدء يتناول أصول الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء وجنة ونار، ويقيم على ذلك الحجج والبراهين حتى يستأصل من نفوس المشركين العقائد الوثنية ويغرس فيها عقيدة الإسلام.

وكان يأمر بمحاسن الأخلاق التى تزكو بها النفس ويستقيم عوجها، وينهى عن الفحشاء والمنكر ليقتلع جذور الفساد والشر، ويبين قواعد الحلال والحرام التى يقوم عليها صرح الدين، فترسو دعائمه فى المطاعم والمشارب والأموال والأعراض والدماء.

ثم تدرج التشريع بالأمة فى علاج ما تأصل فى النفوس من أمراض اجتماعية، بعد أن شُرع لهم من فرائض الدين وأركان الإسلام ما يجعل قلوبهم عامرة بالإيمان، خالصة لله، تعبده وحده لا شريك له.

كما كان القرآن يتنزل وفق الحوادث التى تمر بالمسلمين فى جهادهم الطويل لإعلاء كلمة الله.

ولهذا كله أدلته من نصوص القرآن الكريم إذا تتبعنا مكيه ومدنيه وقواعد تشريعه.

ففى مكة شرعت الصلاة، وشرع الأصل العام للزكاة مقارنا بالربا: ﴿**فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ**﴾ [الروم:٣٨-٣٩].

ونزلت سورة الأنعام - وهى مكية - تبين أصول الإيمان، وأدلة التوحيد، وتندد بالشرك والمشركين، وتوضح ما يحل وما يحرم من المطاعم، وتدعو إلى صيانة حرمات الأموال والدماء والأعراض: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا**

تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٢].

ثم نزل بعد ذلك تفصيل هذه الأحكام. فأصول المعاملات المدنية نزلت بمكة، ولكن تفصيل أحكامها نزل بالمدينة، كآية المداينة وآيات تحريم الربا.

وأسس العلاقات الأسرية نزلت بمكة، أما بيان حقوق كل من الزوجين وواجبات الحياة الزوجية، وما يترتب على ذلك من استمرار العشرة أو انفصامها بالطلاق، أو انتهائها بالموت ثم الإرث - أما بيان هذا فقد جاء فى التشريع المدنى.

وأصل الزنى حرم بمكة: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٣٢]. ولكن العقوبات المترتبة عليه نزلت بالمدينة.

وأصل حرمة الدماء نزل بمكة ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء:٣٣]، ولكن تفصيل عقوباتها فى الاعتداء على النفس والأطراف نزل بالمدينة.

وأوضح مثال لذلك التدرج فى التشريع: تحريم الخمر. فقد نزل قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:٦٧] فى مقام الامتنان بنعمه سبحانه - وإذا كان المراد بالسَّكَرِ ما يُسْكِرُ من الخمر، وبالرزق ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والزبيب - وهذا ما عليه جمهور المفسرين - فإن وصف الرزق بأنه حسن دون وصف السَّكَرِ يُشعر بمدح الرزق والثناء عليه وحده دون السَّكَرِ.

ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]، فقارنت الآية بين منافع الخمر فيما يصدر عن شربها من طرب ونشوة، أو يترتب على الاتجار بها من ربح، ومضارها فى إثم تعاطيها وما ينشأ عنه من ضرر فى الجسم، وفساد فى العقل، وضياع للمال، وإثارة لبواعث الفجور والعصيان؛ ونَفَّرَت الآيةُ منها بترجيح المضار على المنافع.

ثم نزل قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذين آمنُوا لا تقْربُوا الصَّلاة وأَنتُمْ سُكَارى﴾ [النساء:٤٣]. فاقتضى هذا الامتناع عن شرب الخمـر فى الأوقات التى يستمر تأثيرها إلى وقت الصلاة، حـيث جاء النهى عن قـربان الصلاة فى حال السُّكْر حـتى يزول عنهم أثره ويعلموا ما يقولونه فى صلاتهم.

ثم نزل قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذين آمنُوا إنَّما الْخمْرُ والْميْسرُ والأَنصابُ والأَزْلامُ رجْسٌ مّنْ عملِ الشَّيْطانِ فاجْتنبُوهُ لعلَّكُمْ تُفْلحُون (٩٠) إنَّما يُريدُ الشَّيْطانُ أَن يُوقع بيْنكُمُ الْعداوة والْبغْضاء في الْخمْرِ والْميْسرِ ويصُدَّكُمْ عن ذكْرِ اللَّه وعنِ الصَّلاةِ فهلْ أَنتُم مُّنتهُون﴾ [المائدة:٩٠-٩١]. أى فانتهوا، فالاستفهام بمعنى النهى.. فكان هذا تحريما قاطعا للخمر فى الأوقات كلها.

ويوضح هذه الحكمة ما روى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيـها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحـلال والحرام، ولو نزل أول شىء «لا تشـربوا الخمـر» لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل «لا تزنوا» لقالوا: لا ندع الزنى أبدا.

وهكذا كـان التدريج فى تربيـة الأمة وفق مـا يمر بها مـن الأحداث، فـقد اسـتشـار رسول الله ﷺ صـحـابته فى أسـرى بدر، فـقال عـمر: اضـرب أعناقـهم، وقال أبو بكر: نرى أن تعـفو عـنهم وأن تقبل منهم الفـداء، فأخـذ رسول الله ﷺ برأى أبى بكر، فنزل قـوله تعالى: ﴿ما كان لنبيٍّ أن يكُون لهُ أَسْرىٰ حتَّىٰ يُثْخن في الأَرْضِ تُريدُون عرض الدُّنْيا واللَّهُ يُريدُ الآخرة واللَّهُ عزيزٌ حكيمٌ (٦٧) لوْلا كتابٌ مّن اللَّه سبق لمسَّكُمْ فيما أَخذْتُمْ عذابٌ عظيمٌ﴾ [الأنفال:٦٧-٦٨].

وأعجب المسلمـون بكثرتهم يوم حنين حتى قـال رجل: لن نغلب اليوم من قلة، فتلقَّـوا درسا قاسيا فى ذلك، ونزل قـوله تعالى: ﴿لقدْ نصركُمُ اللَّهُ في مواطن كثيرةٍ ويوْم حُنيْنٍ إذْ أَعْجبتْكُمْ كثْرتُكُمْ فلمْ تُغْنِ عنكُمْ شيْئًا وضاقتْ عليْكُمُ الأَرْضُ بما رحُبتْ ثُمَّ ولَّيْتُم مُّدْبرين (٢٥) ثُمَّ أَنزل اللَّهُ سكينتهُ علىٰ رسُوله وعلى الْمُؤْمنين وأَنزل جُنُودًا لَّمْ تروْها وعذَّب الَّذين كفرُوا وذَٰلك جزاءُ الْكافرين (٢٦) ثُمَّ يتُوبُ اللَّهُ منْ بعْد ذَٰلك علىٰ من يشاءُ واللَّهُ غفُورٌ رَّحيمٌ﴾ [التوبة:٢٥-٢٧].

ولما توفى عبد الله بن أُبَىّ ـ رأس المنافـقين ـ دعا ابنُه رسولَ الله ﷺ للصلاة عليه، فقام عليه، فلما وقف قال عـمر: أَعَلَى عدوِّ الله عبدِ الله بن أبى القائل كذا وكذا، والقائل كذا وكذا؟ - يعدد أيامه - ورسول الله ﷺ يبتسم، ثم قال له: «**إنى قد خُيِّرْت، قد قيل لى:** ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة:٨٠]. **فلو أعلم أنى إن زدت على السـبعين غُـفِرَ له لزدت عليـها**». ثم صلى عليه رسـول الله ﷺ، ومشى معه حـتى قام على قبره حتـى فرغ منه. قال عمر: فـعجبت لى وبجرأتى على رسول الله ﷺ -والله ورسـوله أعلم- فوالله ما كان إلا يسيـرا حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:٨٤-٨٥] فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله - عز وجل.

٥ - الحكمة الخامسة: الدلالة القاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد: فهذا القـرآن الذى نزل مُنَجَّما على رسول الله ﷺ فى أكثـر من عشرين عامـا، تنزل الآية أو الآيات على فترات، يقـرؤه الإنسان فيجـده محكم النسج، دقيق السبك، مترابط المعانى، رصين الأسلوب، متناسق الآيات والسور، كأنه عقد فريد نُظمت حباته بما لم يعهد له مثيل فى كلام البشر. قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]. ولو كان هذا القرآن من كلام البشر قيل فى مناسبات وأحـداث، لوقع فيه التفكك والانفصام، واسـتعصى أن يكون بينه هذا التوافق والانسجام: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

* * *

أسباب النزول

قد نزل القرآن ليهدى الإنسانية إلى المَحَجَّة الواضحة، ويرشدها إلى الطريق المستقيم، ويقيم لها أسس الحياة الفاضلة التى تقوم دعامتها على الإيمان بالله ورسالاته، ويقرر أحوال الماضى، ووقائع الحاضر، وأخبار المستقبل.

وأكثر القرآن نزل ابتداءً لهذه الأهداف العامة.. ولكن الصحابة - رضى الله عنهم - فى حياتهم مع رسول الله ﷺ قد شاهدوا أحداث السيرة، وقد يقع بينهم حادث خاص يحتاج إلى بيان شريعة الله فيه، أو يلتبس عليهم أمر فيسألون رسول الله ﷺ عنه لمعرفة حكم الإسلام فيه، فيتنزل القرآن لذلك الحادث، أو لهذا السؤال الطارئ، ومثل هذا يعرف بأسباب النزول.

عناية العلماء به

وقد اعتنى الباحثون فى علوم القرآن بمعرفة سبب النزول، ولمسوا شدة الحاجة إليه فى تفسير القرآن، فأفرده جماعة منهم بالتأليف، ومن أشهرهم: على ابن المدينى شيخ البخارى، ثم الواحدى فى كتابه (أسباب النزول)، ثم الجعبرى[1] الذى اختصر كتاب الواحدى، فاختصره بحذف أسانيده ولم يزد عليه شيئا، ثم شيخ الإسلام ابن حجر[2] الذى ألف كتابا فى أسباب النزول اطلع السيوطى على جزء من مسودته ولم يتيسر له الوقوف عليه كاملا، ثم

---

(١) هو برهان الدين إبراهيم بن عمر، كان له عناية بعلوم القرآن، فألف «روضة الطرائف فى رسم المصاحف»، و«كنز المعانى» وهو شرح للشاطبية فى القراءات، توفى سنة ٧٣٢ هجرية.

(٢) هو أبو الفضل شهاب الدين الحافظ ابن حجر العسقلانى، واسمه وكتبه عماد فى هذا الفن - توفى سنة ٨٥٢ هجرية.

السيوطى[1] الذى قال عن نفسه: وقد ألفت فيه كتابا حافلا موجزا محررا لم يؤلَّف مثله فى هذا النوع: سميته «لُبَابُ المنقول فى أسباب النزول[2]».

ما يعتمد عليه فى معرفة سبب النزول

والعلماء يعتمدون فى معرفة سبب النزول على صحة الرواية عن رسول الله ﷺ، أو عن الصحابة، فإن إخبار الصحابى عن مثل هذا إذا كان صريحا لا يكون بالرأى، بل يكون له حكم المرفوع. قال الواحدى: «لا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجَدُّوا فى الطلب فيها». وهذا هو نهج علماء السلف، فقد كانوا يتورعون عن أن يقولوا شيئا فى ذلك دون تثبت، قال محمد بن سيرين:[3] سألت عبيدة عن آية من القرآن، فقال: اتق الله وقل سدادا، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن وهو يعنى الصحابة. وإذا كان هذا هو قول ابن سيرين من أعلام علماء التابعين تحريا للرواية، ودقة فى الفصل، فإنه يدل على وجوب الوقوف عند أسباب النزول الصحيحة. ولذا فإن المعتمد من ذلك فيما روى من أقوال الصحابة ما كانت صيغته جارية مجرى المسند، بحيث تكون هذه الصيغة جازمة بأنها سبب النزول.

وذهب السيوطى إلى أن قول التابعى إذا كان صريحا فى سبب النزول فإنه يقبل، ويكون مرسلا إذا صح المسند إليه وكان من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، واعتضد بمرسل آخر[4].

وقد أخذ الواحدى على علماء عصره تساهلهم فى رواية سبب النزول، ورماهم بالإفك والكذب، وحذرهم من الوعيد الشديد، حيث يقول: «أما اليوم

---

(١) هو جلال الدين عبد الرحمن السيوطى المتوفى سنة ٦١١ هجرية.

(٢) انظر: الإتقان ١/٢٨.

(٣) تابعى من علماء البصرة، اشتهر بعلوم الحديث، وتعبير الرؤيا، وتوفى سنة ١١٠ هجرية.

(٤) انظر: الإتقان ١/٣١.

فكل أحد يخترع شيئا، ويختلق إفكا وكذبا، ملقيا زمامه إلى الجهالة، غير مفكر فى الوعيد للجاهل بسبب الآية».

تعريف السبب

وسبب النزول بعد هذا التحقيق يكون مقصورا على أمرين:

١ - أن تحدث حادثة فيتنزل القرآن الكريم بشأنها، وذلك كالذى روى عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾، خرج النبى ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: «يا صباحاه» فاجتمعوا إليه، فقال: **«أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِيّ؟»** قالوا: ما جربنا عليك كذبا. قال: **«فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد»** فقال أبو لهب[1]: تبا لك، إنما جمعتنا لهذا؟ ثم قام، فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[2].

٢ - أن يُسأل رسول الله ﷺ عن شىء فيتنزل القرآن ببيان الحكم فيه، كالذى كان من خَوْلَة بنت ثعلبة عندما ظاهر[3] منها زوجها أوس بن الصامت، فذهبت تشتكى من ذلك. عن عائشة قالت: تبارك الذى وَسِعَ سَمْعُهُ كل شىء، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويَخْفَى علىَّ بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهى تقول: يا رسول الله، أَكَلَ شبابى ونَثَرْتُ له بطنى، حتى إذا كَبِرَتْ سِنِّى وانقطع وَلَدِى ظاهَرَ مِنِّى! اللهم إنى أشكو إليك. قالت: فما بَرِحَتْ حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ وهو أوس بن الصامت[4].

ولا يعنى هذا أن يلتمس الإنسان لكل آية سببا، فإن القرآن لم يكن نزوله وقفا على الحوادث والوقائع، أو على السؤال والاستفسار فقط، بل كان القرآن يتنزل ابتداءً بعقائد الإيمان، وواجبات الإسلام، وشرائع الله تعالى فى حياة الفرد

---

(١) اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم.

(٢) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما.

(٣) الظهار: أن يقول الرجل لامرأته: أنت علىّ كظهر أمى، واختلفوا فى غير هذه الصيغة.

(٤) أخرجه ابن ماجة وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقى.

وحياة الجماعة. قال الجعبرى: نزل القرآن على قسمين: قسم نزل ابتداء، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال[1].

ولذا يعرف سبب النزول بما يأتى: هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال.

ومن الإفراط فى علم سبب النزول أن نتوسع فيه، ونجعل منه ما هو من قبيل الإخبار عن الأحوال الماضية، والوقائع الغابرة. قال السيوطى: «والذى يُتَحَرَّرُ فى سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه؛ليخرج ما ذكره الواحدى فى تفسيره فى سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة، فإن ذلك ليس من أسباب النزول فى شىء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية، كذكر قصة قوم نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك، وكذلك ذكره فى قوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ سبب اتخاذه خليلا، فليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يَخْفَى».

فوائد معرفة سبب النزول

لمعرفة سبب النزول فوائد، أهمها

(أ) بيان الحكمة التى دعت إلى تشريع حكم من الأحكام، وإدراك مراعاة الشرع للمصالح العامة فى علاج الحوادث رحمةً بالأمة.

(ب) تخصيص حكم ما نزل -إن كان بصيغة العموم- بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، وهى مسألة خلافية سيأتى لها مزيد من الإيضاح، وقد يمثل لهذا بقوله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:١٨٨].

فقد روى أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ منا أُوتِىَ وأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بما لم يفعل يُعَذَّبْ، لَنُعَذَّبَنَّ أجمعون. فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية، إنما نزلت فى أهل الكتاب. ثم تلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ

---

(١) انظر: الاتقان ١/٢٨.

﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [آل عمران:١٨٧] الآية. قال ابن عباس: سألهم رسول الله ﷺ عن شيء، فكتموه إياه وأخذوا بغيره، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أوتوا من كتمان ما سألهم عنه.

(ج) إذا كان لفظ ما نزل عاما وورد دليل على تخصيصه فمعرفة السبب تقصر التخصيص على ما عدا صورته، ولا يصح إخراجها؛ لأن دخول صورة السبب فى اللفظ العام قطعى، فلا يجوز إخراجها بالاجتهاد لأنه ظنى، وهذا هو ما عليه الجمهور. وقد يمثل لهذا بقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٣-٢٥].

فإن هذه الآية نزلت فى عائشة خاصة، أو فيها وفى سائر أزواج النبى ﷺ. عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ نزلت فى عائشة خاصة[١]. وعن ابن عباس فى هذه الآية أيضا: هذه فى عائشة وأزواج النبى ﷺ، ولم يجعل الله لمن فعل ذلك توبة، وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبى ﷺ التوبة. ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النور:٤-٥][٢].

وعلى هذا فإن قبول توبة القاذف - وإن كان مخصصا لعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ - لا يتناول بالتخصيص من قذف عائشة، أو قذف سائر أزواج النبى ﷺ، فإن هذا لا توبة له؛ لأن دخول صورة السبب فى اللفظ العام قطعى.

(د) ومعرفة سبب النزول سبيل لفهم معانى القرآن، وكشف الغموض الذى يكتنف بعض الآيات فى تفسيرها ما لم يعرف سبب نزولها. قال

(١) أخرجه ابن أبى حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير والطبرانى وابن مردويه (راجع تفسير ابن جرير، وتفسير ابن كثير).

الواحدى: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها. وقال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن. وقال ابن تيمية: ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب[1]، ومن أمثلة ذلك: ما أشكل على مروان بن الحكم فى فهم الآية الآنفة الذكر: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:١٨٨]، حتى أورد له ابن عباس سبب النزول. ومثله آية: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨]. فإن ظاهر لفظ الآية لا يقتضى أن السعى فرض؛ لأن الجناح يفيد الإباحة لا الوجوب، وذهب بعضهم إلى هذا تمسكا بالظاهر[2]، وقد ردت عائشة على عروة بن الزبير فى فهمه ذلك بما ورد فى سبب نزولها، وهو أن الصحابة تأثموا من السعى بينهما لأنه من عمل الجاهلية، حيث كان على الصفا إساف، وعلى المروة نائلة، وهما صنمان، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما. عن عائشة أن عروة قال لها: أرأيت قول الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، فما أرى على أحد جناحا أن لا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: بئس ما قلت يا ابن أختى، إنها لو كانت على ما أولتها كانت «فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما»، ولكنها إنما أنزلت، أن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التى كانوا يعبدونها، وكان من أَهَلَّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة فى الجاهلية، فأنزل الله ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ الآية. قالت عائشة: ثم قد بين رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما[3].

(هـ) ويوضح سبب النزول من نزلت فيه الآية حتى لا تحمل على غيره بدافع الخصومة والتعامل. كالذى ذكر فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا

---

(١) انظر: الإتقان ص/٢٨.

(٢) حكى الزمخشرى فى الكشاف عن أبى حنيفة أنه يقول: إن السعى واجب وليس بركن، وعلى تاركه دم، وقد ذهب إلى عدم الوجوب: ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين.

(٣) أخرجه الشيخان وغيرهما.

أَتعدَانِني أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف:١٧]. فقد أراد معاوية أن يستخلف يزيد. وكتب إلى مروان على المدينة بذلك، فجمع الناس وخطبهم ودعاهم إلى بيعة يزيد، فأبى عبد الرحمن بن أبى بكر أن يبايع، فأراده مروان بسوء لولا أن دخل بيت عائشة، وقال مروان: إن هذا الذى أنزل الله فيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾، فردت عليه عائشة وبينت له سبب نزولها: «عن يوسف ابن ماهك قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية بن أبى سفيان، فخطب، فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه، فقال عبد الرحمن ابن أبى بكر شيئا، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا أنزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾، فقالت عائشة: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلا أن الله أنزل عذرى»[١]. وفى بعض الروايات: «أن مروان لما طلب البيعة ليزيد قال: سُنة أبى بكر وعمر، فقال عبد الرحمن: سنة هرقل وقيصر، فقال مروان: هذا الذى قال الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان، والله ما هو به، ولو شئت أن أسمى الذى نزلت فيه لسميته»[٢].

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

إذا اتفق ما نزل مع السبب فى العموم، أو اتفق معه فى الخصوص، حمل العام على عمومه، والخاص على خصوصه.

ومثال الأول قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]. عن أنس قال: إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها فى

---

(١) أخرجه البخارى.

(٢) أخرجه عبد بن حميد والنسائى وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن محمد بن زيد، قال: لما بايع معاوية لابنه قال مروان إلخ..

البيوت، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «**جامعوهن فى البيوت، واصنعوا كل شىء إلا النكاح**[1]».

ومثال الثانى قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٧-٢١] فإنها نزلت فى أبى بكر، والأتقى أفعل تفضيل مقرون بـ (ال) العهدية، فيختص بمن نزل فيه، وإنما تفيد (ال) العموم إذا كانت موصولة أو معرفة من جمع على الراجح و(ال) فى الأتقى ليست موصولة؛ لأنها لا توصل بأفعل التفضيل، والأتقى ليس جمعا، بل هو مفرد، والعهد موجود لا سيما وأن صيغة أفعل تدل على التمييز، وذلك كاف فى قصر الآية على من نزلت فيه، ولذا قال الواحدى: «الأتقى: أبو بكر الصديق فى قول جميع المفسرين، عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب فى الله: بلال، وعامر بن فهيرة، والنهدية وابنتها، وأم عيسى، وأمة بنى المؤئل، وفيه نزلت: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى﴾ إلى آخر السورة»[2].

وروى نحوه عن عامر بن عبد الله بن الزبير وزاد فيه: فنزلت فيه هذه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[3].

أما إذا كان السبب خاصا ونزلت بصيغة العموم، فقد اختلف الأصوليون: أتكون العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟

١ - فذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فالحكم الذى يؤخذ من اللفظ العام يتعدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها، كآيات اللعان التى نزلت فى قذف هلال بن أمية زوجته، فعن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك بن سحماء. فقال النبى ﷺ: «**البينة وإلا حد فى ظهرك**» فقال: يا رسول الله، إن رأى أحدنا

(١) أخرجه مسلم وأهل السنن وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم وذكر ستة فقط.

(٣) أخرجه الحاكم وصححه.

على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البـينة؟ فجعل رسول الله ﷺ يقول: «**البينة وإلا حد فى ظهرك**»، فقال هلال: والذى بعـثك بالحق إنى لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهرى من الحد، ونزل جـبريل فأنزل عليه: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [النور:٦-٩]..[(١)] فيتناول الحكم المأخوذ من هذا اللفظ العام ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ**﴾ غير حادثة هلال دون احتياج إلى دليل آخر.

وهذا هو الرأى الـراجح والأصح، وهو الذى يتـفق مع عـمـوم أحكام الشريعـة، والذى سار عليه الصـحابة والمجتـهدون من هذه الأمة فـعَدوا بحكم الآيات إلى غير صورة سببها، كنزول آية الظهار فى أوس بن الصامت، أو سلمة ابن صخر - على اختلاف الروايات فى ذلك.

والاحتجـاج بعموم آيات نزلت على أسباب خـاصة شائع لدى أهل العلم، قال ابن تيمية: قد يجيء هذا كثيرا، ومن هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت فى كذا، لا سيمـا إن كان المذكور شخصا كقـولهم: إن آية الظهار نزلت فى امرأة، ﴿**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم**﴾ [المائدة:٤٩] نزلت فى بنـى قـريظة والنضـيـر، ونـظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل فى قوم من المشركين بمكة، أو فى قوم من اليهود والنصارى، أو فى قوم من المؤمنين، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، هـذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق، والناس وإن تنازعوا فى اللفظ الـعام الوارد على سبب هل يخـتص بسببـه؟ فلم يقل أحد إن عمـومات الكتـاب والسنة تختص بالـشخص المعين، وإنما غـاية ما يقـال: إنها تختص بنوع ذلك الشـخص، فتعم مـا يشبهه، ولا يكون العـموم فيهـا بحسب اللفظ. والآية التى لهـا سـبب معين إن كـانت أمرا ونهـيـا فهى مـتناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبرا بمدح أو بذم فهى متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته.

---

(١) أخرجه البخارى والترمذى وابن ماجة.

وذهب جماعة إلى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، فاللفظ العام دليل على صورة السبب الخاص. ولابد من دليل آخر لغيره من الصور كالقياس ونحوه، حتى يبقى لنقل رواية السبب الخاص فائدة ويتطابق السبب والمسبب تطابق السؤال والجواب.

صيغة سبب النزول

لسبب النزول صيغتان؛ لأنها إما أن تكون نصا صريحا فى السببية، وإما أن تكون محتملة.

فتكون نصا صريحا فى السببية إذا قال الراوى: سبب نزول هذه الآية كذا، أو إذا أتى بفاء تعقيبية داخلة على مادة النزول بعد ذكر الحادثة أو السؤال، كما إذا قال حدث كذا، أو سئل رسول الله ﷺ عن كذا فنزلت الآية. فهاتان صيغتان صريحتان فى السببية، وسيأتى لهما الأمثلة.

وأما الإحتمال فيعنى أن تكون الصيغة محتملة للسببية ولما تضمنته الآية من الأحكام، مثل قول الراوى: نزلت هذه الآية فى كذا، فذلك يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أنه داخل فى معنى الآية. وكذلك إذا قال: أحسب هذه الآية نزلت فى كذا، أو ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى كذا. فإن الراوى بهذه الصيغة لا يقطع بالسبب. ومثال الصيغة الأولى ما روى أن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: أنزلت ﴿**نساؤكم حرث لكم**﴾ الآية فى إتيان النساء فى أدبارهن.

ومثال الصيغة الثانية ما روى عن عبد الله بن الزبير أن الزبير خاصم رجلا من الأنصار قد شهد بدرا مع النبى ﷺ إلى رسول الله ﷺ فى شراج من الحرة، وكانا يسقيان به كلاهما النخل. فقال الأنصارى: سرِّح الماء يمر، فأبى عليه. فقال رسول الله ﷺ: «**اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك**» فغضب الأنصارى وقال: يا رسول الله أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: «**اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك**» واستوفى رسول الله ﷺ للزبير حقه. وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على

الزبير برأى أراد فيه سعة للأنصارى. فلما أَحْفَظَ رسولَ اللهِ الأنصاريُّ استوفى للزبير حقه فى صريح الحكم. فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى ذلك: ﴿فلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥]. قال ابن تيمية: «قولهم نزلت هذه الآية فى كذا» يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل فى الآية وإن لم يكن السبب. وقد تنازع العلماء فى قول الصحابى «نزلت هذه الآية فى كذا»: هل يجرى مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذى نزلت لأجله، أو يجرى مجرى التفسير منه ؟

فالبخارى يدخله فى المسند، وغيره لا يدخله، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره، بخلاف ما إذا ذكر سببا نزلت الآية عقبه فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا فى المسند.

وقال الزركشى فى (البرهان): قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال «نزلت هذه الآية فى كذا» فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب فى نزولها، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع - والله أعلم.

* * *

فصل فيما أنزل من القرآن

على لسان بعض الصحابة - رضى الله عنهم

والأصل فى هذا الباب الآيات التى جاءت موافقة لرأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه. فقد أخرج الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه**». قال ابن عمر: وما نزل بالناس أمر قط فقالوا وقال، إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر. وأخرجه ابن مردويه، عن مجاهد، قال: كان عمر يرى الرأى، فينزل به القرآن.

وأخرج البخارى وغيره، عن أنس، قال: قال عمر: وافقت ربى فى ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾ [**البقرة**:١٢٥]، وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن؟ فنزلت آية الحجاب، واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرة، فقلت لهن: ﴿**عسى ربكم إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن**﴾[**التحريم**:٥] فنزلت كذلك.

وأخرج مسلم عن ابن عمر، عن عمر، قال: وافقت ربى فى ثلاث: فى الحجاب، وفى أسارى بدر، وفى مقام إبراهيم.

وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس، قال: قال عمر: وافقت ربى - أو وافقنى ربى - فى أربع، فنزلت هذه الآية: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين**﴾[**المؤمنون**:١٢] فلما نزلت قلت أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت: ﴿**فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾ [**المؤمنون**:١٢].

وأخرج عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أن يهوديا لقى عمر بن الخطاب، فقال: إن جبريل الذى يذكر صاحبكم عدو لنا، فقال عمر: «من كان عدوا لله وملائكته

ورسله جبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين». قال: فنزلت على لسان عمر.

وأخرج سنيد فى تفسيره، عن سعيد بن جبير، أن سعد بن معاذ لما سمع ما قيل فى أمر عائشة قال: سبحانك هذا بهتان عظيم. فنزلت كذلك.

وقال ابن سعد فى الطبقات: أخبرنا الواقدى، حدثنى إبراهيم بن محمد بن شرحبيل العبدرى، عن أبيه، قال: حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد، فقطعت يده اليمنى، فأخذ اللواء بيده اليسرى، وهو يقول: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم». ثم قطعت يده اليسرى، فحنا على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره، وهو يقول: «وما محمد إلا رسول. . . .» ثم قتل، فسقط اللواء.

قال محمد بن شرحبيل: وما نزلت هذه الآية: ﴿**وما محمد إلا رسول**﴾ يومئذ حتى نزلت بعد ذلك.

ويقرب من هذا ما ورد فى القرآن على لسان غير الله - عز وجل: كالنبى - عليه الصلاة والسلام - وجبريل والملائكة، غير مصرح بإضافته إليهم ولا محكى بالقول، كقوله تعالى: ﴿**قد جاءكم بصائر من ربكم....**﴾ الآية، فإن هذا ورد على لسانه ﷺ لقوله بآخر الآية ١٠٤ من سورة الأنعام: ﴿**وما أنا عليكم**﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿**أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا**﴾ [الأنعام:١١٤] فإنه أوردها أيضا على لسانه، وكذا: ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ**﴾ [مريم:٦٤] فإنها واردة على لسان جبريل، وقوله: ﴿**وما منا إلا له مقام معلوم.. وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون**﴾ فذلك وارد على لسان الملائكة، ثم قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة:٥] فوارد على لسان العباد، إلا أنه هنا يمكن تقدير القول: أى قولوا. وكذا الآيتان الأوليان يصح أن تقدر فيهما: قل، بخلاف الثالثة والرابعة فلا يقدر فيهما. . والله أعلم.

* * *

فصل فيما تكرر نزوله

صرح جماعة من المتقدمين والمتأخرين، بأن من القرآن ما تكرر نزوله، قال ابن الحصاد: قد يتكرر نزول الآية تذكيرا وموعظة. وذكر من ذلك خواتيم سورة النحل، وأول سورة الروم.

وذكر ابن كثير منه آية الروح. وذكر قوم منه الفاتحة. وذكر بعضهم منه قوله: ﴿**ما كان للنبى والذين آمنوا**﴾ الآية [**التوبة**:١١٣] وقال الزركشى فى البرهان: قد ينزل الشيء مرتين تعظيما لشأنه، وتذكيرا عند حدوث سببه خوف نسيانه. ثم ذكر منه آية الروح، وقوله: ﴿**أقم الصلاة طرفى النهار....**﴾ الآية[**هود**:١١٤]

قال: فإن سورة الإسراء وهود مكيتان، وسبب نزولهما يدل على أنهما نزلتا بالمدينة، ولهذا أشكل ذلك على بعضهم.

ولا إشكال؛ لأنها نزلت مرة بعد مرة. قال: وكذلك ما ورد فى سورة الإخلاص من أنها جواب للمشركين بمكة، وجواب لأهل الكتاب بالمدينة، وكذلك قوله: ﴿**ما كان للنبى والذين آمنوا......**﴾ . قال: والحكمة فى هذا كله أنه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضى نزول آية، وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها، فيوحى إلى النبى ﷺ تلك الآية بعينها، تذكيرا لهم بها وبأنها تتضمن هذه.

تنبيه

وقد يجعل من ذلك: الأحرف التى تقرأ على وجهين فأكثر، ويدل له ما أخرجه مسلم من حديث أُبى: «**أن ربى أرسل إلىّ أن أقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه: أن هون على أمتى. فأرسل إلى أن أقرأه على حرفين، فرددت إليه: أن هون على أمتى. فأرسل إلى أن أقرأه على سبعة أحرف**»، فهذا الحديث يدل على أن القرآن لم ينزل من أول وهلة، بل مرة بعد أخرى.

وفى (جمال القراء) للسخاوى بعد أن حكى القول بنزول الفاتحة مرتين: «إن قيل: فما فائدة نزولها مرة ثانية؟. قلت: يجوز أن يكون نزلت أول مرة على حرف واحد ونزلت فى الثانية ببقية وجوهها، نحو ملك ومالك والسراط والصراط ونحو ذلك» انتهى.

تنبيه آخر

قد أنكر بعضهم كون شىء من القرآن يتكرر نزوله، كذا رأيته فى كتاب (الكفيل بمعانى التنزيل) وعلله بأن تحصيل ما هو حاصل لا فائدة فيه، وهو مردود بما تقدم من فوائده، وبأنه يلزم أن يكون كل ما نزل بمكة نزل بالمدينة مرة أخرى، فإن جبريل كان يعارضه القرآن كل سنة، ورد بمنع الملازمة وبأنه لا معنى للإنزال، إلا أن جبريل كان ينزل على رسول الله ﷺ بقرآن لم يكن نزل به من قبل، فيقرئه إياه، ورد بمنع اشتراطه قوله: «لم يكن نزل به من قبل»، ثم قال: ولعلهم يعنون بنزولها مرتين أن جبريل نزل حين حولت القبلة، فأخبر الرسول ﷺ أن الفاتحة ركن فى الصلاة كما كانت بمكة، فظن ذلك نزولا لها مرة أخرى، أو أقرأه فيها قراءة أخرى لم يقرأها له بمكة، فظن ذلك إنزالا. انتهى.

***

ما تأخر حكمه عن نزوله
وما تأخر نزوله عن حكمه

قال الزركشى فى (البرهان): قد يكون النزول سابقا على الحكم، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾[الأعلى:١٤-١٥]. فقد روى البيهقى وغيره عن ابن عمر أنها نزلت فى زكاة الفطر، وأخرج البزار نحوه مرفوعا.

وقال بعضهم: لا أدرى ما وجه هذا التأويل؟ لأن السورة مكية، ولم يكن

بمكة عيد ولا زكاة ولا صوم. وأجاب البغوى بأنه يجوز أن يكون النزول سابقا على الحكم، كما قال: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[البلد:١-٢] فالسورة مكية، وقد ظهر أثر الحل يوم فتح مكة، حتى قال - عليه الصلاة والسلام: «**أحلت لى ساعة من نهار**»، وكذلك نزل بمكة: ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾ [القمر:٤٥] قال عمر بن الخطاب فقلت: أى جمع؟ فلما كان يوم بدر، وانهزمت قريش، نظرت إلى رسول الله ﷺ فى آثارهم مصلتا بالسيف ويقول: ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾ فكانت يوم بدر. أخرجه الطبرانى فى الأوسط.

وكذلك قوله: ﴿**جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب**﴾ [ص:١١] قال قتادة: وعده الله وهو يومئذ بمكة أنه سيهزم جندا من المشركين، فجاء تأويلها يوم بدر. أخرجه ابن أبى حاتم.

ومثله أيضا قوله تعالى: ﴿**قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد**﴾ [**سبأ**:٤٩]

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: ﴿**قل جاء الحق**﴾ قال: السيف، والآية مكية متقدمة على فرض القتال. ويؤيد تفسير ابن مسعود ما أخرجه الشيخان من حديثه أيضا، قال: دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصبا، فجعل يطعنها بعود كان فى يده، ويقول: ﴿**جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا**﴾[**الإسراء**:١٨] ﴿**جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد**﴾.

وقال ابن الحصار: ذكر الله الزكاة فى السور المكيات كثيرا، تصريحا وتعريضا، بأن الله سينجز وعده لرسوله، ويقيم دينه ويظهره، حتى تفرض الصلاة والزكاة وسائر الشرائع، ولم تؤخذ الزكاة إلا بالمدينة بلا خلاف، وأورد من ذلك قوله تعالى: ﴿**وآتوا حقه يوم حصاده**﴾ [**الأنعام**:١٤١]، وقوله فى سورة المزمل: ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾ [**المزمل**:٢٠] ومن ذلك قوله فيها: ﴿**وآخرون يقاتلون فى سبيل الله**﴾ [**المزمل**:٢٠]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا**﴾[**فصلت**:٣٣]، فقد قالت عائشة وابن عمر وعكرمة وجماعة: إنها نزلت فى المؤذنين، والآية مكية، ولم يشرع الأذان إلا بالمدينة.

ومن أمثلة ما تأخر نزوله عن حكمه: آية الوضوء، ففى صحيح البخارى عن عائشة قالت: «سقطت قلادة لى بالبيداء، ونحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله ﷺ ونزل، فثنى رأسه فى حجرى راقدا، وأقبل أبو بكر، فلكزنى لكزة شديدة وقال: حبست الناس فى قلادة! ثم إن النبى ﷺ استيقظ، وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد، فنزلت: ﴿**يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**لعلكم تشكرون**﴾. [**المائدة**:٦] فالآية إجماعا مدنية، وفرض الوضوء كان بمكة مع فرض الصلاة.

قال ابن عبد البر: معلوم عند جميع أهل المغازى أنه ﷺ لم يصلِّ منذ فرضت الصلاة إلا بوضوء، ولا يدافع ذلك إلا جاهل أو معاند. قال: والحكمة فى نزول آية الوضوء مع تقدم العمل به، ليكون فرضه متلوا بالتنزيل.

وقال غيره: يحتمل أن يكون أول الآية نزل مقدما مع فرض الوضوء، ثم نزل بقيتها - وهو ذكر التيمم - فى هذه القصة. قلت: يرده الإجماع على أن الآية مدنية.

ومن أمثلته أيضا آية الجمعة، فإنها مدنية، والجمعة فرضت بمكة. وقول ابن الفرس: «إن إقامة الجمعة لم تكن بمكة قط»، يرده ما أخرجه ابن ماجة عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، قال: كنت قائد أبى حين ذهب بصره، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان، يستغفر لأبى أمامة أسعد بن زرارة، فقلت: يا أبتاه أرأيت صلاتك على أسعد بن زرارة كلما سمعت النداء بالجمعة.. لم هذا؟ قال: أى بنى، كان أول من صلى بنا الجمعة قبل مقدم رسول الله ﷺ من مكة.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿**إنما الصدقات للفقراء**﴾ [**التوبة**:٦٠] فإنها نزلت سنة تسع، وقد فرضت الزكاة قبلها فى أوائل الهجرة.

قال ابن الحصار: فقد يكون مصرفها قبل ذلك معلوما، ولم يكن فيه قرآن متلوٌّ، كما كان الوضوء معلوما قبل نزول الآية ثم نزلت تلاوة القرآن تأكيدا به.

***

ما نزل مفرقا وما نزل جمعا

الأول غالب القرآن، ومن أمثلته فى السور القصار: ﴿اقرأ﴾ أول ما نزل منها إلى قوله: ﴿ما لم يعلم﴾ ، والضحى أول ما نزل منها إلى قوله: ﴿فترضى﴾ كما فى حديث الطبرانى.

ومن أمثلة الثانى: سورة الفاتحة، والإخلاص، والكوثر، وتبت، ولم يكن، والنصر، والمعوذتان، ونزلتا معا. ومنه فى السور الطوال: المرسلات، ففى المستدرك عن ابن مسعود، قال: كنا مع النبى ﷺ فى غار، فنزلت عليه: ﴿**والمرسلات عرفا**﴾ [المرسلات:١] فأخذتها من فيه وإن فاه رطب بها، فلا أدرى بأيها ختم: ﴿**فبأى حديث بعده يؤمنون**﴾ [**الأعراف**:١٨٥] أو ﴿**إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون**﴾ [**المرسلات**:٤٨]

ومنه سورة الصف لحديثها السابق فى النوع الأول.

ومنه سورة الأنعام، فقد أخرج أبو عبيد والطبرانى عن ابن عباس، قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة، وحولها سبعون ألف ملَك.

وأخرج الطبرانى من طريق يوسف بن عطية الصفار - وهو متروك عن ابن عون عن نافع عن ابن عمر - قال: قال رسول الله ﷺ : «**نزلت علىَّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك**».

وأخرج عن مجاهد قال: نزلت الأنعام كلها جملة واحدة معها خمسمائة ملك.

وأخرج عن عطاء قال: أنزلت الأنعام جميعا ومعها سبعون ألف ملك.

فهذه شواهد يقوى بعضها بعضا.

وقيل إن الحديث الوارد فى أنها نزلت جملة واحدة فى إسناده ضعف، وقد روى ما يخالفه، فروى أنها لم تنزل جملة واحدة، بل نزلت آيات منها بالمدينة اختلفوا فى عددها، فقيل ثلاث وقيل غير ذلك. انتهى.

***

فصل فى عدد سور القرآن

وآياته وكلماته وحروفه

أما سوره فمائة وأربع عشرة سورة بإجماع من يعتد به، وقيل وثلاث عشرة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة. وقد أخرج أبو الشيخ عن أبى روق قال: الأنفال وبراءة سورة واحدة.

وأخرج عن أبى رجاء قال: سألت الحسن عن الأنفال وبراءة: سورتان أم سورة؟ قال: سورتان. ونقل مثل قول أبى روق عن مجاهد، وأخرجه ابن أبى حاتم عن سفيان.

وأخرج ابن أشتة، عن ابن لهيعة، قال: يقولون: إن براءة من «يسألونك»،(١) وإنما لم تكتب فى أول براءة «بسم الله الرحمن الرحيم» لأنها من «يسألونك»، وشبهتهم اشتباه الطرفين وعدم البسملة. ويرده تسمية النبى ﷺ كلا منهما.

ونقل صاحب الإقناع، أن البسملة ثابتة لبراءة فى مصحف ابن مسعود، قال: ولا يؤخذ بهذا.

قال القشيرى: والصحيح أن التسمية لم تكن فيها؛ لأن جبريل - عليه السلام- لم ينزل بها فيها. وفى المستدرك عن ابن عباس قال: سألت علىَّ بن أبى طالب: لِمَ لَمْ تكتب فى براءة «بسم الله الرحمن الرحيم»؟ قال لأنها (أى البسملة) أمان، وبراءة نزلت بالسيف.

أخرج أبو عبيد عن ابن سيرين قال: كتب أُبىٌّ بن كعب فى مصحفه فاتحة الكتاب والمعوذتين.

تنبيه

كذا نقل جماعة عن مصحف أُبَىّ أنه ست عشرة سورة، والصواب أنه خمس عشرة، فإن سورة الفيل وسورة لإيلاف قريش فيه سورة واحدة، ونقل

---

(١) أى الأنفال.

ذلك عن السخاوى فى (جمال القراء) عن جعفر الصادق وأبى نهيك أيضا.

قلت: ويرده ما أخرجه الحاكم والطبرانى من حديث أم هانئ أن رسول الله ﷺ قال: «**فضل الله قريش لسبع**» الحديث، وفيه: «**إن الله أنزل فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها معهم غيرهم: لإيلاف قريش**».

وفى كامل الهذلى عن بعضهم أنه قال: الضحى وألم نشرح سورة واحدة. نقله الإمام الرازى فى تفسيره عن طاوس وعمر بن عبد العزيز.

فائدة

قيل: الحكمة فى تسوير القرآن سورا، تحقيق كون السورة بمجردها معجزة وآية من آيات الله، والإشارة إلى أن لكل سورة نمطا مستقلا، فسورة يوسف تترجم عن قصته، وسورة براءة تترجم عن أحوال المنافقين وأسرارهم، إلى غير ذلك، وسُوِّرَت السور طوالا وأوساطا وقصارا تنبيهًا على أن الطول ليس من شرط الإعجاز، فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات، وهى معجزةٌ إعجاز سورة البقرة، ثم ظهرت لذلك حكمة فى التعليم وتدريج الأطفال من السور القصار إلى ما فوقها، تيسيرا من الله على عباده لحفظ كتابه.

قال الزركشى فى (البرهان): «فإن قلت: فهلا كانت الكتب السابقة كذلك؟ قلت: لا.. وذلك لوجهين: أحدهما أنها لم تكن معجزات من جهة النظم والترتيب، والآخر أنها تيسيرا للحفظ». لكن ذكر الزمخشرى ما يخالفه، فقال فى (الكشاف):

«والفائدة فى تفصيل القرآن وتقطيعه سورا كثيرة متعددة، وكذلك أنزل الله التوراة والإنجيل والزبور، وما أوحاه إلى أنبيائه سورا، وبوب المصنفون فى كتبهم أبوابا موشحة الصدور بالتراجم، منها أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف كان أحسن وأفخم من أن يكون بابا واحدا، ومنها أن القارئ إذا ختم سورة أو بابا من الكتاب، ثم أخذ فى آخر، كان أنشط له، وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله.. ومثله المسافر إذا قطع ميلا أو فرسخا وانتهى إلى رأسى برية نَفَّسَ ذلك عنه، ونشط للسير؛ ومن ثم جزئ القرآن أجزاء وأخماسا.. ومنها أن الحافظ إذا حفظ السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة

مستقلة بنفسها، فيعظم عنده ما حفظه، ومنه حديث أنس: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا»، ومن ثم كانت القراءة فى الصلاة بسورة أفضل، ومنها التفصيل بسبب تلاحق الأشكال والنظائر الملائمة بعضها لبعض وبذلك تتلاحظ المعانى والنظم، إلى غير ذلك من الفوائد» انتهى.

وما ذكره الزمخشرى من تسوير سائر الكتب هو الصحيح أو الصواب، فقد أخرج ابن أبى حاتم، عن قتادة، قال: كنا نتحدث أن الزبور مائة وخمسون سورة، كلها مواعظ وثناء، ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض، ولا حدود، وذكروا أن فى الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال إلى غير ذلك - والله أعلم.

***

فصل فى عد الآى

وقد أفرده جماعة من القراء بالتصنيف، قال الجعبرى: «تعريف الآية أنها قرآن مركب من جمل ولو تقديرا، ذو مبدأ ومقطع، متدرج فى سورة، وأصلها العلامة، ومنه ﴿إن آية ملكه﴾ لأنها علامة للفضل والصدق، أو الجماعة؛ لأنها جماعة لكلمة».

وقال غيره: الآية طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها. وقيل: هى الواحدة من المعدودات فى السور، سميت به لأنها علامة على صدق من أتى بها، وعلى عجز المتحدَّى بها.

وقيل: لأنها علامة على انقطاع ما قبلها من الكلام وانقطاعه مما بعدها. قال الواحدى: وبعض أصحابنا يجوز على هذا القول تسمية أقل من الآية آية، لولا أن التوقيف ورد بما هى عليه الآن.

وقال أبو عمرو الدانى: لا أعلم كلمة هى وحدها آية إلا قوله: ﴿مدهامتان﴾ وقال غيره: بل فيه غيرها مثل: والنجم، و الضحى، والعصر، وكذا فواتح السور عند من عدّها.

قال بعضهم: الصحيح أن الآية إنما تعلم بتوقيف من الشارع كمعرفة

السورة. قال: فالآية طائفة من حروف القرآن علم بالتوقيف انقطاعها، يعنى عن الكلام الذى بعدها فى أول القـرآن، أو عن الكلام الذى قبلها فى آخـر القرآن، وعما قـبلها وما بعدها فى غـيرهما. غيـر مشتمل على مثـل ذلك. قال: وبهذا القيد خرجت السورة.

وقال الزمخـشرى: الآيات علم توقيفى لا مـجال للقياس فـيه، ولذلك عدوا «الم» آية حيث وقعت، و«المص»، ولم يـعدوا «المر» و «الر»، وعدّوا «حم» آية فى سورها، و«طه» و«يس»، ولم يعـدّوا «طس». قلت: ومما يدل على أنه توقيـفى ما أخرجـه أحمـد فى مسنده من طريق ابن أبى النجـود، عن زر، عن ابن مسـعود، قال: أقرأنى رسول الله ﷺ سورة من الثلاثين من آل «حم»، قال: يعنى الأحقاف قال: وكانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت الثلاثين... الحديث.

وقال ابن العربى: ذكر النبى ﷺ أن الفـاتحة سبع آيات وسورة الملك ثلاثون آية، وصح أنه قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران. قال: وتعديد الآى من معضـلات القرآن، ومن الآيات طويل وقصير، منه مـا ينتهى إلى تمام الكلام ومنه ما يكون فى أثنائه. وقال غيره: سبب اختلاف السلف فى عد الآى أن النبى ﷺ كان يقف على رءوس الآى للتوقـيف، فإذا علم محلها وصل للتمـام، فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة.

وقد أخـرج ابن الضريس، من طريق عـثمان بن عطـاء، عن أبيه عن ابن عباس قال: جميع آى القرآن ستـة آلاف وستمائة آية، وجميع حروف القرآن ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألف حرف وستـمائة حرف وواحد وسبعون حرفـا (٣٢٣٦٧١). قال الدانى: أجمعـوا على أن عدد آيات القرآن سـتة آلاف آية، ثم اختلفوا فـيما زاد على ذلك، منهم من لم يزد، ومنهم من قـال: ومائتا آية وأربع آيات، وقـيل: وأربع عشـرة، وقيل: وتسع عـشرة، وقيـل: وخمس وعشرون، وقيل: وست وثلاثون آية.

قلت: أخرج الديلـمى فى مسند الفردوس، من طريق الفـيض بن وثيق، عن فرات بن سليمان، عن ميمون بن مـهران، عن ابن عباس مرفوعا: «**درج الجنة على**

قدر آى القرآن، بكل آية درجة. فتلك ستة آلاف آية ومائتا آية وست عشرة آية، بين كل درجين مقدار مـا بين السماء والأرض» ولا حرج على فضل اللـه، فهو يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير والله أعلم.

***

فصل فيما نزل من القرآن على بعض الأنبياء وما لم ينزل منه على أحد قبل النبى ﷺ

ولنبدأ بالقسم الذى اختص به النبىْ ﷺ ولم ينزل على أحد قبله. فمن ذلك القسم سـورة الفاتحـة وخواتيم سورة البـقرة. وأما الفـاتحة فأخـرج البيـهقى فى الشُّعب من حديث أنس مرفوعا «**إن الله أعطانى فيما مَنَّ به على**»: إنى أعطيتك فاتحـة الكتاب وهي من كنوز عرشى. وأمـا خواتيم سورة البـقرة فأخرج أحـمد وغـيره من حـديث عقـبة بن عـامر مـرفوعـا: « **اقرءوا هاتين الآيـتين فإن ربى أعطانيهما من تحت عرشه**».

وأخرج من حديـث حذيفة: «**أعطيت هذه الآيات من آخر سـورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبى قبلى**».

وأما آية الكرسى فتقدمت فى حديث معقل بن يسار.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس - رضى الله عنهـما - قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ آية الكرسى ضحك وقال: «**إنها من كنز الرحمن تحت العرش**».

وأخرج أبو عـبيد: عن على قـال: آية الكرسى أُعطيها نـبيكم من كنز تحت العرش، ولم يعطها أحد قبل نبيكم.

وروى مسلم عن ابن عـباس: أتى النبىَّ ﷺ مَلَكٌ فقال: أبشـر بنورين قد أوتيتـهما لم يؤتهـما نبى قبلك: فـاتحة الكتاب وخـواتيم سورة البقـرة. وأخرج الطبرانى عن عقبة بن عامـر، قال: ترددوا فى الآيتين من آخر سورة البقرة ﴿آمن الرسول﴾ إلى خاتمتها. فإن الله اصطفى بهما مـحمدا ﷺ. وأخرج أبو عبيد فى

فضائله عن كعب قال: إن محمدا ﷺ أعطى أربع آيات لم يعطهن موسى، وإن موسى أعطى آية لم يعطها محمد، قال: والآيات التى أعطيهن محمد: ﴿لله ما فى السموات وما فى الأرض﴾ [البقرة:٢٨٤] حتى ختم البقرة -فتلك ثلاث آيات- وآية الكرسى. . والآية التى أعطيها موسى: «اللهم لا تولج الشيطان فى قلوبنا وخلصنا منه من أجل أن لك الملكوت والأبد والسلطان والملك والحمد والأرض والسماء الدهر الداهرَ أبدا أبدا» آمين آمين.

وأخرج البيهقى فى الشِّعب عن ابن عباس قال: السبع الطوال لم يعطهن أحد إلا النبى ﷺ، وأعطى موسى منها اثنتين. وأخرج الطبرانى عن ابن عباس مرفوعا: «**أعطيت أمتى شيئا لم يعطه أحد من الأمم عند المصيبة: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾**» وهذا من فضل الله على أمة محمد ﷺ.

وأما القسم الذى نزل منه على بعض الأنبياء فمن أمثلته ما أخرجه الحاكم عن ابن عباس: قال لما نزل ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ [**الأعلى**:١] قال ﷺ: «**فى صحف إبراهيم وموسى**». فلما نزل ﴿**والنجم إذا هوى**﴾ [**النجم**:١] فبلغ ﴿**وإبراهيم الذى وفى**﴾ قال: ﴿**وفَّى * أن لا تزر وازرة وزر أخرى**﴾[**النجم**:٣٧-٣٨] إلى قوله: ﴿**هذا نذير من النذر الأولى**﴾ [**النجم**:٥٦]

وقال سعيد بن منصور: حدثنا خالد بن عبد الله عن عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس قال: هذه السورة فى صحف إبراهيم وموسى. وأخرج عن السدى قال: إن هذه السورة فى صحف إبراهيم وموسى مثل ما أنزل على النبى ﷺ.

وأخرج الحاكم من طريق القاسم عن أبى أمامة قال: أنزل الله على إبراهيم مما أنزل على محمد: ﴿**التائبون العابدون**﴾ إلى قوله ﴿**وبشر المؤمنين**﴾ [**التوبة**:١١٢] و﴿**قد أفلح المؤمنون**﴾ إلى قوله: ﴿**فيها خالدون**﴾ [**المؤمنون**:١-١١] و ﴿**إن المسلمين والمسلمات**﴾ إلى آخر الآية [**الأحزاب**:٣٥] وكذلك قوله تعالى: ﴿**الذين هم على صلاتهم دائمون**﴾ إلى قوله ﴿**قائمون**﴾ [**المعارج**:٢٣-٣٣] فى «سأل»، فلم يف بهذه السهام إلا إبراهيم ومحمد ﷺ.

وأخرج البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إنه -يعنى النبى ﷺ الموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن ﴿**يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا**﴾ وحرزا للأميين. . . . الحديث.

وأخرج ابن الضريس وغيره عن كعب قال: فتحت التوراة بـ ﴿**الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون**﴾، وختمت بـ﴿**الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا**﴾ إلى قوله ﴿**وكبره تكبيرا**﴾.

وأخرج أيضا عنه قال: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام: ﴿**الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور**﴾، وخاتمة التوراة خاتمة هود: ﴿**فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون**﴾.

وأخرج من وجه آخر عنه قال: أول ما أنزل فى التوراة عشر آيات من سورة الأنعام: ﴿**قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم**﴾ إلى آخرها. وأخرج أبو عبيد عنه قال: أول ما أنزل فى التوراة عشر آيات من سورة الأنعام: ﴿**قل تعالوا أتل**﴾ الآيات [**الأنعام**:١٥١] قال بعضهم: يعنى أن هذه الآيات اشتملت على الآيات العشر التى كتبها الله لموسى فى التوراة أول ما كتب: وهى توحيد الله، والنهى عن الشرك، واليمين الكاذبة، والعقوق، والقتل، والزنا، والسرقة، والزور، ومد العين إلى ما فى يد الغير، والأمر بتعظيم السبت.

وأخرج الدارقطنى من حديث بريدة، أن النبى ﷺ قال: «**لأعلمنك آية لم تنزل بعد سليمان على غيرى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾**».

وروى البيهقى عن ابن عباس، قال: أغفل الناس آية من كتاب الله لم تنزل على أحد قبل النبى ﷺ إلا أن يكون سليمان بن داود: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ [**النمل**:٣٠].

وأخرج الحاكم عن ابن ميسرة أن هذه الآية مكتوبة فى التوراة بسبعمائة آية: ﴿**يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم**﴾ أول سورة الجمعة.

ويدخل فى هذا النوع ما أخرجه ابن أبى حاتم: عن محمد بن كعب القرظى قال: البرهان الذى أُرى يوسف ثلاث آيات من كتاب الله: ﴿**وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون**﴾ [**الانفطار**:١١-١٢] وقوله: ﴿**وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن**﴾ الآية[**يونس**:١٠] وقوله: ﴿**أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت....**﴾[**الرعد**:٣٣] وزاد غيره آية أخرى: ﴿**ولا تقربوا الزنى**﴾ [**الإسراء**:٣٢]

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ [يوسف:٢٤] قال: رأى آية من كتاب الله نهته مثلت له فى جدار الحائط - والله أعلم.

***

فصل فى معرفة العالى والنازل من أسانيده

فى الحقيقة أن طلب علو الإسناد سُنة، وهو تقرب إلى الله تعالى، وقد قسمه أهل الحديث إلى خمسة أقسام وستأتى هنا:

الأول: القرب من رسول الله ﷺ من حيث العدد بإسناد نظيف غير ضعيف. وهو أفضل أنواع العلو وأجلها. وأعلى ما يقع للشيوخ فى هذا الزمان إسنادٌ رجاله أربعة عشر رجلا، وإنما يقع ذلك فى قراءة ابن عامر فى رواية ابن ذكوان.. ثم خمسة عشر، ويقع ذلك فى قراءة عاصم من رواية حفص، وقراءة يعقوب من رواية رويس.

الثانى من أقسام العلو عند المحدثين: القرب إلى إمام من أئمة الحديث كالأعمش وهشيم وابن جريج والأوزاعى ومالك، ونظيره هنا القرب إلى إمام من الأئمة السبعة، فأعلى ما يقع اليوم للشيوخ بالإسناد المتصل بالتلاوة إلى نافع: اثنا عشر، وإلى ابن عامر: اثنا عشر.

الثالث عند المحدثين: العلو بالنسبة إلى رواية أحد الكتب الستة بأن يروى حديثا لو رواه من طريق كتاب من الستة وَقَعَ أَنْزَلَ مما لو رواه من غير طريقها، ونظيره هنا العلو بالنسبة إلى بعض الكتب المشهورة فى القراءات، كالتبيين والشاطبية، ويقع فى هذا النوع الموافقات والأبدال والمساوات المصافحات.

فالموافقات: أن تجتمع طريقه مع أحد أصحاب الكتب فى شيخه، وقد يكون مع علو على ما رواه من طريقه، وقد لا يكون. مثاله: قراءة ابن كثير رواية البزى طريق ابن بنان عن أبى ربيعة عنه يرويها ابن الجزرى، كتاب (المقنع) لأبى منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون، وكتاب (المصباح) لأبى الكرم الشهرزورى، وقرأ بها كل المذكورين على عبد السيد بن عتاب.. فروايته لها من

أحد الطريقين تسمى موافقة للآخر، باصطلاح أهل الحديث.

والبدل: أن يجتمع معه فى شيخ شيخه فصاعدا، وقد يكون أيضا بعلو، وقد لا يكون، مثاله هنا: قراءة أبى عمرو رواية الدورى طريق ابن مجاهد: عن أبى الزعراء عنه. رواية ابن الجزرى من كتاب (التيسير) قرأ بها الدانى على أبى القاسم عبد العزيز بن جعفر البغدادى، وقرأ بها علَى أبى طاهر عن ابن مجاهد، ومن المصباح قرأ بها أبو الكرم على أبى القاسم يحيى بن أحمد السيبى، وقرأ بها على أبى الحسن الحمامى، وقرأ بها على أبى طاهر، فروايته لها من طريق (المصباح) تسمى بدلا للدانى فى شيخ شيخه.

والمساواة: أن يكون بين الراوى والنبى ﷺ أو الصحابى أو من دونه إلى شيخ أحد أصحاب الكتب، كما بين أحد أصحاب الكتب والنبى ﷺ، أو الصحابى أو من دونه على ما ذكره من العدد.

والمصافحة: أن يكون أكثر عدد منه بواحد. فكأنه لقى صاحب ذلك الكتاب وصافحه، وأخذ عنه.. فمثاله قراءة نافع: رواها الشاطبى، عن أبى عبد الله محمد بن على النفرى، عن أبى عبد الله بن سلام الفرس، عن سليمان ابن نجاح وغيره، عن أبى عمرو الدانى، عن أبى الفتح فارس بن أحمد، عن عبد الباقى بن الحسن، عن إبراهيم بن عمر المقرئ، عن أبى الحسين بن بويان، عن أبى بكر بن الأشعث، عن أبى جعفر الربعى المعروف بأبى نشيط، عن قالون، عن نافع، ورواها ابن الجزرى عن أبى محمد بن البغدادى وغيره، عن الصائغ، عن الكامل بن فارس، عن أبى اليمن الكندى، عن أبى القاسم هبة الله بن أحمد الحريرى، عن أبى بكر الخياط، عن الفرضى، وابن بويان. فهذه مساواة لابن الجزرى؛ لأن بينه وبين ابن بويان سبعة، وهو العدد الذى بين الشاطبى وبينه، وهى لمن أخذ عن ابن الجزرى مصافحة للشاطبى.

ومما يشبه هذا التقسيم الذى لأهل الحديث: تقسيم القراء أحوال الإسناد إلى قراءة ورواية وطريق ووجه، فالخلاف إن كان لأحد الأئمة السبعة أو العشرة أو نحوهم واتفقت عليه الروايات والطرق فهو قراءة، وإن كان للراوى عنه فرواية،

أو لمن بعده فنازلا فطريق، أو لا على هذه الصفة مما هو راجع إلى تخيير القارئ فيه فوجه.

الرابع من أقسام العلو: تقدم وفاة الشيخ عن قرينه الذى أخذ عن شيخه، فالآخذ مثلا عن التاج بن مكتوم أعلى من الآخذ عن أبى المعالى بن اللبان، وعن ابن اللبان أعلى من البرهان الشامى وإن اشتركوا فى الأخذ عن أبى حيان، لتقدم وفاة الأول عن الثانى والثانى عن الثالث.

الخامس: العلو بموت الشيخ لا مع التفات لأمر آخر أو شيخ آخر متى يكون. قال بعض المحدثين: يوصف الإسناد بالعلو إذا مضى عليه من موت الشيخ خمسون سنة. وقال ابن منده: ثلاثون. فعلى هذا: الآخذ عن أصحاب ابن الجزرى عال من سنة ثلاث وستين وثمانمائة، لأن ابن الجزرى آخر من كان عاليا، ومضى عليه حينئذ من موته ثلاثون سنة فأكثر.

فهذا ما حرر من قواعد الحديث، وخرجت عليه قواعد القراءات ولم يسبق السيوطى إليه. وإذا عرفت العلو بأقسامه عرفت النزول، فإنه ضده، وحيث ذم النزول، فهو ما لم ينجبر بكون رجاله أحفظ وأتقن، أو أجل أو أشهر أو أورع.. أما إذا كان كذلك فليس بمذموم ولا مفضول. والله أعلم.

***

الفهرس

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ٢٠٠٣/١٥٩٠٢
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-09-0978-5

مطـابع فـاين لايـن
ص.ب ٧٨ المعـــادى
تليفـون : ٧٠٠٧٠٨٢ فـاكس : ٧٠٠٨٣٥٣



هذا الكتاب

من أوجز الكتب التى أُلِّفت فى (علوم القرآن) فهو يبين للقارىء مباحث هذا الفن فى سهولة ويُسر ، وقد ابتدأه المؤلف بالتعريف العلمى للقرآن وأسمائه وأوصافه ،ثم شرع فى تعريف الوحى ، وأول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه والمكى والمدنى، وأسباب النزول، إلى غير ذلك من مباحثه، وختمه بمعرفة العالى والنازل من أسانيده غير مُسهب فى ذلك كله، فجاء الكتاب نافعاً لطلاب علوم الشريعة عامة ،وعلوم الكتاب العزيز بصفة خاصة.

تصميم الغلاف: نيفين صلاح